الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي - ميلة -

معهدالآداب واللغات

ميدان اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

لغة القوة في الشعر الجزائري

-مفدي زكريا أنموذجا-

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد

شعبة الأدب العربي

إعداد الطالبتين:

1- مريخي بشرى.

2- بوالعيش إيمان.

إشراف الأستاذ:

بورايو عبد الحفيظ.

السنة الجامعية: 2013/2012.

إهداء

إلى اللذان أحاطاني بسياج كريم من العناية تربية و توجيها والدي الكريمين رعاهما الله و ألبسهما ثوب العافية في الدنيا و في الآخرة.

إلى جميع إخوتي: عبد الحق، فؤاد، داود و زوجته ابتسام، فوزي، شرافة.

إلى من وقفت بجانبي تشد آزري و تفتح لي نوافذ الآمال أختي العزيزة حليمة.

إلى رفيقتي و صديقتي و شريكتي في هذا العمل المتواضع إيمان.

إلى جميع صديقاتي- فوزية، نسيمة، خديجة، أمينة، و آسيا- و بناتي عمي سارة و جميدة، إلى رفيقتي دربي نادية و أمينة.

إلى ابن خالتي عماد و زوجته و ولديه الكتكوتين الصغيرين "أروى" و "أحمد" و ابنتي خالاتي فطيمة و سامية.

إلى من تكرم بالإشراف علي و ساندني الأستاذ عبد الحفيظ بورايو.

إلى كل من يعرفني من قريب أو من بعيد أهدي ثمرة جهدي و لبنة تعبي.

بشرى

إهداء

بدقات قلب ينبض شكراً و تقديراً و عرفاناً.

إلى مدرستي التي علمتني أولى معاني الحياة إلى من حملتني وهنا على وهن إلى النفس الوضاءة التي أنارت دروب النجاح –أمي العزيزة-

إلى الذي عرف قيمة العلم فشجعني و انحنى لأستقيم و سهر لأنام إلى الذي لا يشكو من طلباتي و لا يتوارى عن تحقيق رغباتي إلى قرة عيني –أبي الفاضل-

إلى من يسري دمه في عروقي إلى قدوتي في الحياة إلى من علمني الصبر و الاجتهاد و أنار طريقي بكل دعوات الخير –جدي محمود- أطال الله في عمره.

إلى زهور العائلة الإخوة الكرام: نورة، ياسين، ميادة، عبد الرؤوف.

إلى العائلة الكبيرة العمات و الخالات و الأخوال و أولادهم خاصة - سارة، مريم، حسناء، كريمة- أدامها الله بيننا من محبة.

إلى زملاء و أصدقاء المشوار الدراسي –أمينة، جميدة، خديجة، فوزية، نسيمة، آسية، نادية-

إلى الذي قاسمني هذا العمل فكانت نعم الصديقة و الأخت –بشرى-

و لا أنسى أن أخص بالذكر ل الأساتذة الذين درسوني على رأسهم الأستاذ المشرف –عبد الحفيظ بورايو-

إلى كل من ذكرهم قلبي و نسيهم قلمي و كل من يؤمن بأن الإنسان مهما سعى للكمال يبقى الكمال لله وحده.

إيمان

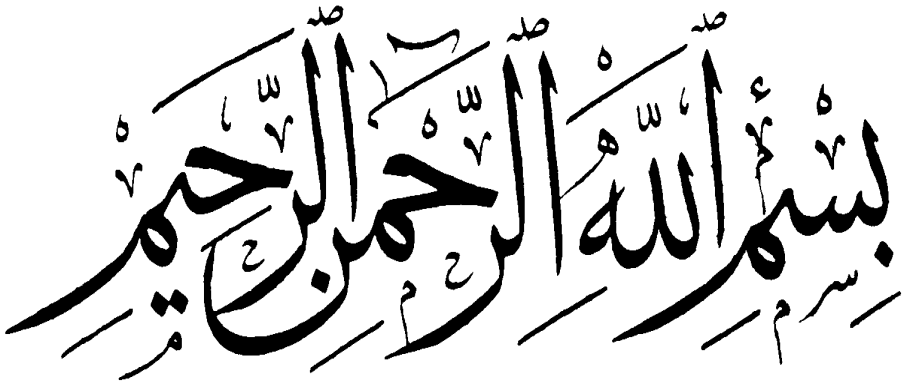

"اللهم إني أسألك إيمانا دائما وقلبا خاشعا

و علما نافعا ويقينا صادقا ودينا قيما"

اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني

وزدني علما

اللهم آميـــــــن

شكر و تقدير

خير ما تسهل به نفحات الشكر و العرفان حمد الله على جزيل نعمته، و كثير آلائه، و عظيم إرسائه لشوارد فكري و سيولة قلمي، حتى ظهر بحثي على الصورة التي أرادها لي الله سبحانه، و الصلاة و السلام على النبي الأمين خاتم النبيين و المرسلين أما بعد:

فإنه يطيب لنا أن نتقدم بالشكر و التقدير إلى جامعة ميلة خاصة كلية الآداب و اللغات و جميع أعضاء هيئة التدريس في القسم و من تتلمذت على أيديهم.

كما يسرنا أن نتوجه بعميق الشكر و عظيم الامتنان إلى سعادة الأستاذ "عبد الحفيظ بورايو" الذي تكرم بالإشراف على هذه المذكرة، و تعهدها برعايته و توجيهه الدائم.

كما نوجه شكرنا و امتناننا إلى كل من الأستاذ "سليم بوعجاجة"، "ابراهيم لقان"، "سفاري جمال"، " طارق بوحالة"، و الأستاذة "حنان بومالي" الذين لم يبخلوا علينا بالنصائح و التوجيهات و إمدادنا بالمراجع اللازمة التي ساعدتنا كثيرا.

لكم جميعا شكرنا و تقديرنا و امتناننا و لا نملك إلا الدعاء لكم في ظهر الغيب بأن يجزل الله لكم المثوبة و يعظم لكم أجركم.

مقدمـــــــة:

إن الدور الذي مثله الشعر الثوري لا يغيب عن أصحاب الألباب، فقد كان الشعلة التي حركت الغافلين وأحيت العاطفة في قلوب الجزائريين و تمكنت من دغدغة عواطف الشعب وأحيت فيه النخوة والغيرة، ولا شك أن أصحاب هذا النوع من الشعر قد كان شعرهم صادقا ومعبرا رغم ما دفعوه جراء نضالهم ودفاعهم عن البلاد والعباد،لا أن هذا لم يزدهم إلا إصرارا وقوة فعاشوا كالجبال الشامخات ولمعت أسماؤهم في الساحة الأدبية الجزائرية وأصبحوا قدوة ونبراسا في أعين الشعب وصار شعرهم أناشيد تردد في ساحات الوغى.

تشكل الرغبة – كما نعلم جميعا– أهم عامل عند الباحث لاختيار موضوع البحث ولكنها ليست وحدها المسؤولة عن ذلك بل هناك عوامل أخرى تؤدي إلى القرار باختيار موضوع ما للدراسة وقد دفعنا إلى اختيار موضوعنا هذا دوافع عدة نذكر منها:

- الميل إلى اختيار موضوع ما في إطار الأدب الجزائري أولا:لأنه لم يحض بالدراسة الكافية عكس الأدب المشرقي الذي أخد حضه في الدراسة من طرف النقاد والباحثين،وثانيا:لقناعتنا الكبيرة أنه لعب دورا فعالا على المستوى المحلي والخارجي في إيقاظ الضمائر الوطنية والعربية.
- البحث في أهم قضية في التاريخ وفي الأدب الجزائري وهي الثورة المظفرة وما أفرزته من روائع الأدب وجميل الشعر لأن أغلب ما كتب فيها كان في قالب تاريخي.
- تشجيع الأستاذ المشرف على تناول هذا الموضوع نظرا لغياب مثل هذه الدراسة في المكتبة الجامعية وكذا لما يحمله هذا الموضوع من طابع الجدة.

- ومن هذا المنطلق ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا عن لغة القوة في الشعر الجزائري حيث جئنا بنموذج لإعطاء صورة واضحة على أن الجزائر تمتلك شعراء استطاعوا أن يدافعوا عنها بقوة القلم التي ضاهت قوة السلاح وهو شاعر الثورة "مفدي زكريا"،وهذا في اعتقدنا موضوع ذا أهمية كبيرة لأنه يتناول شاعرا تعرض لمرحلة عصيبة كابدها الشعب الجزائري فكان صورة حية لمعاناته الاجتماعية والاقتصادية و نشاطاته السياسية،وكان دليلا على مقاومة لغة الضاد للغة الاستعمارية، وساهم مساهمة كبيرة في حفظ ثرات الشعب الجزائري وأصالته كما كان صدى للأحداث السياسية، وحمل أصوات الرفض لسياسة الاستعمار وشحذ النفوس و أحيا الضمائر، وأرهص للثورة قبل وقوعها، واعتمد لغة القوة دفاعا عنها.

وقد اشتملت دراستنا في هذا البحث على: مدخل، ثلاثة فصول وخاتمة يحتوي كل فصل مباحث ثلاثة:

الفصل الأول يتكون من ثلاث مباحث تمثلت في :خصائص الشعر الجزائري، أغراضه وأهم قضاياه وقد ذكرناهم على سبيل الاختيار لا على سبيل الحصر وذلك لكثرتها مقارنة مع حجم البحث ومنهجيته، أما الفصل الثاني :فقد تضمن تعريفا بمفدي زكريا شخصيته وأهم أعماله وأراء كبار أعمدة الأدب الجزائري فيه، ثم تحديد لغة القوة في شعره وهذا بعد تعريف بمصطلح القوة معجميا ومحاولة توضيح اللبس الموجود بين مفهومي **لغة القوة وقوة اللغة**.و فيما يخص الفصل الثالث فهو عبارة عن دراسة فنية لشعر مفدي بداية باللغة الشعرية فالموسيقى الشعرية وأخيرا الصورة الشعرية.

أما المدخل فقد ألقينا فيه الضوء على المرحلة التي ترعرعت فيها الثورة في جوانبها السياسية والأدبية، وفي الخاتمة تلخيص لنتائج هذا البحث المتواضع.وقد اعتمدنا في بحثنا على المنهج الفني و التاريخي وكذا النفسي لمناسبتهم في مثل هذه الدراسة.

وعن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدناها نذكر ديوان "اللهب المقدس" لمفدي زكريا إضافة إلى ديوان محمد العيد آل خليفة وبعض المجلات و المذكرات و الرسائل التي تناولت دراسات عن الشاعر كما استعنا ببعض الدراسات الشاملة للشعر الجزائري منها: الشعر الجزائري الحديث " لصالح خرفي" و الشعر الجزائري الحديث خصائصه و اتجاهاته الفنية " لمحمد ناصر".

ومع علمي أنه لا يخلو جهد من مشقة، وأن لابد دون الشهد من إبر النحل– كما يقول الشاعر– فقد واجهتنا صعوبات في جمع مادة البحث على رأسها قلة المصادر و المراجع فيما يخص بحثنا نظرا لقلة الدراسات في مجال الأدب الجزائري، لكن هذه الصعوبات إنما هي جزء من عملية البحث ولعلها الجزء الأساسي فيه ولولاه لفقدت عملية البحث العلمي كثيرا من أهميتها ومتعتها.

وفي الأخير لا مانع للتوجه بالشكر والتقدير والعرفان إلى كل الذين مدوا يد العون ولو كان بكلمة طيبة، ونعترف بجميل الأستاذ المشرف عبد الحفيظ بورايو على ماقدمه لنا من نصائح وتوجيهات، كما نشكر عمال معهد الآداب والمركز الجامعي فلهم الفضل فيما نحن عليه اليوم.

ونرجو أن نكون بهذه الدراسة المتواضعة قد فسحنا المجال لدراسة الأدب الثوري الذي لا يقل أهمية عن التاريخ الثوري والوصول إلى الحقائق التي لم نتعرف عليها بعد، كما نتمنى أن تكون هذه الدراسة البسيطة لبنة جديدة تضاف إلى سابقاتها في ميدان البحث العلمي.

ولله الأمر من قبل ومن بعد فهو ولي التوفيق وهو العاصم من الزلل و الهادي إلى حسن السبيل.

مدخل:

المقاومة الجزائرية وأبعادها الأدبية :

إن الحرية و الاستقلال حق كل شعب من الشعوب و كثيرا ما حرمت الشعوب منها تحت وطأة الاستعمار و بالرغم من كل ذلك فلا بد من المقاومة لاسترجاع المفقود و الوصول إلى الهدف المنشود ونستحضر في ذلك قول الشاعر أبي القاسم الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الـــــحياة فلا بد أن يستجيب الـــــقـــــدر

ولا بـــد لليـــل أن ينجـــــــــلي ولابـــد للقـــيد أن ينـــــكســـــــر

من يقرأ هذه الأبيات الشعرية تتبادر إلى ذهنه من الوهلة الأولى فكرة الحرية ، أبعادها منطلقاتها ، أهميتها لكل شعب ، فهذه الكلمات التي تنبعث منها شرارة الوطنية والتمسك بالهوية كتبت لكل شعب يرفض الاستعباد ، لكل شعب يريد العيش بكرامة في ربوع وطنه لكل شعب يريد التمتع بحقوقه و ما السبيل لذلك سوى المكافحة و المقاومة .

ولابد أن المقاومة الجزائرية ضد الكيان الاستعماري كانت من أروع اللوحات التي رسمت على صفحات التاريخ في فن اسمه فن المقاومة ورفض الذل والاستعمار ، فلا يمكن لأحد أن ينكر ما عانته الجزائر من التحرشات الأجنبية و كيد الغزاة الذين تفننوا في استنزاف خيراتها و استعباد سكانها وطمس معالم هويتها و تذويب انتمائها التاريخي والديني واللغوي ، بالرغم من ضراوة البطش الفرنسي فإن المقاومة لم تخمد أبدا فما كانت تفتر في جهة حتى تندلع في جهة أخرى ، وإذا كان الإستعمار قد حاول وضع يديه على جميع الميادين واستخدام كل الوسائل لتنفيذ سياسته فإن المقاومة الجزائرية بالمقابل حاولت أن تكون عامة و أن تصمد في جميع المجالات التي حاول الاستعمار مسها وذلك باستعمال مختلف الأساليب أهمها المقاومة المسلحة والمقاومة الأدبية .

أ- **المقاومة المسلحة** : لقد كانت المقاومة في السبعينية الأولى من الاحتلال مركزة على الجانب المسلح ، فالاستعمار و إن كان قد استولى على الجزائر رسميا إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في التوغل نحو الداخل ، فما يخطوا خطوة حتى تجابهه مقاومة الأهالي الذي لم يتورع المستعمر أبدا عن حصدهم بوحشية منعدمة النظير ففي الناحية الغربية قام الشيخ محي الدين بن مصطفى والد الأمير عبد القادر بالجهاد ضد الغزاة إثر مبايعة أهل المنطقة له و خاض معارك ضد الاستعمار حاز في بعضها على انتصارات هامة مثل معركة "خنق النطاح " الأولى والثانية في ماي 1832 ، وبما أن الشيخ محي الدين متقدم في السن فقد قام الأهالي بمبايعة ابنه الشاب عبد القادر يوم 27 جانفي1832 وعمره آنذاك لم يتجاوز أربعا وعشرون سنة وكان عبد القادر يحمل روحا قيادية تغذيها الحماسة والشجاعة والإيمان[1].

وقد حققت هذه المقاومة نجاحا كبيرا استطاع فيها الأمير عبد القادر هزم العديد من الجنرالات الفرنسية .

" أما عن المقاومة في الشرق فقد حمل لواءها الحاج أحمد باي بقسنطينة الذي التحم بالجيش الفرنسي و أجبره على التراجع منهزما ففشلت محاولات العدو في اقتحام مدينة قسنطينة طوال سبع سنوات كاملة "[2] ، لم تنته المقاومة بانتهاء الأمير عبد القادر وأحمد باي ، بل سرعان ما حمل لواءها أبطال آخرون في مناطق مختلفة من القطر الجزائري فقد امتدت ثورة عارمة هدفها الوحيد تطهير الأرض الجزائرية من تدنيس المستعمر الفرنسي و إقامة حكومة جزائرية ذات سيادة وطنية داخل إطار المبادئ الإسلامية .

ب ــ المقاومة الأدبية : رغم الدور الكبير الذي لعبته المقاومة العسكرية في طرد المستعمر من الأراضي الجزائرية ، إلا أنها لم تكن المقاومة الوحيدة فقد كان للمقاومة

[1] يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار البعث، ط1، قسنطينة، 1987، ص 18.

[2] المرجع نفسه، ص 19.

الأدبية دور كبير في مجابهة السياسة الاستعمارية الوحشية "فمع مطلع القرن العشرين عرفت الجزائر بداية نهضة فكرية وأدبية ثقيلة الخطى ، تجلت في النشاط الصحفي وكذلك إرسال البعثات الطلابية إلى جامع الزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب وتوثيق الصلات بين الجزائر والمشرق العربي "[1]. كل هذا يدل على مدى تعلق الجزائريين بعروبتهم وشعورهم القومي العميق رغم الحواجز التي وضعها الإستعمار بين الجزائر والمشرق العربي فقد كانت الصحف المشرقية تقرأ في الجزائر بشغف مع أنها ممنوعة من قبل الاستعمار ولا تصل إلى الجزائر إلا تهريبا كما كانت الصحف الجزائرية تخصص جزءاً كبيراً من أعمدتها لنشر الأدب المشرقي .

و هكذا فقد كان الأدب الجزائري الملتزم بالقضايا الوطنية و الأمة العربية الإسلامية صورة عاكسة عن نفسية الشعب الجزائري الرافض للاستعمار و التمسك بعروبته و إسلامه ، كما كان صورة للثقافة العربية التي حاول الاستعمار جاهدا خنق أنفاسها بعزلها عن منابعها و حرمانها من جميع الوسائل إبتداءا من المدرسة و الكتاب و انتهاءا بالمطابع و الصحافة ، و لهذا فقد كان الأدب الجزائري قويا ملتهبا في مضمونه الثوري ، ضعيفا في مستواه الفني إلا عند بعض الكتاب و الشعراء الذين حققوا مستوى إبداعي رفعهم إلى مصاف الشعراء العرب الممتازين ونخص بالذكر هنا شاعر الثورة الجزائرية " مفدي زكريا" الذي رفع قلمه سلاحا في وجه المستعمر بلغة القوة والمضامين الثورية التي تجلت في شعره ، هذا الشاعر الذي قال عن نفسه في حوار له مع صحيفة جزائرية في سؤال وجهته له " لكل أديب طريقته الخاصة في نسج عمله الأدبي فما هي طريقتك ؟ فقال :"لست ممن يفتش عن الشعر ، بل الشعر هو الذي يفتش عني ، ولا أحاول اجتلاب الأحداث بل الأحداث هي التي تجتلبني و لا أقول إلا ما أعتقد و يختلج أعماقي ووفاء لصدق التعبير قد يستعصي على الطالع أحيانا فأعالجه لبعض عناء ، فإذا انتصرت عليه

[1] المرجع السابق، ص 35.

اعتقدت أن القصيدة انتهت فعلا ولا أسمح لشعري أن ينطلق لأفاق المجتمع حتى يطربني ، ويهز كياني وتتواجد معه أعماقي "[1]

هذا هو إذاً شعر الثورة الجزائرية ، وهذا شاعر الثورة مفدي زكريا وكلاها مدين للآخر بالكثير ، فالثورة بدون لسان من الشعر يعبر عنها ويشرح مبادئها و يواكب تطوراتها ثورة بكماء ، جذورها مجتثة لا تتعدى سطح الأرضية التي تنمو فيها ، فلا التاريخ الذي يسجل أحداث الثورة ولا الدساتير والبيانات التي تخطط لها و تشرح أهدافها ، تستطيع أن تقوم مقام الشعر الذي يعتنقها و يواكبها ، أو أن تحقق الثورة ما يحققه لها الشعر الصادق . ولعل ما سبق يمكن أن يكون منطلقا عريضا و مدخلا مناسبا لمعالجة لغة القوة الشعرية التي ضاهت لغة السلاح ، ففي فن المقاومة تمهيدا على تجلياتها في شعر مفدي زكريا .

ــ إن مفهوم الشعر عند الشعراء الجزائريين يختلف باختلاف تكوينهم الثقافي وثقافتهم الشعرية ، حيث تبنى بعضهم قدماء الشعراء والنقاد وتأثر في الوقت نفسه ببعض التيارات الشعرية الحديثة ، والبعض الآخر منهم تبنى المفهوم الحديث للنقاد ، وكلا من المفهومين كان نتيجة طبيعية للعامل الثقافي المؤثر بقوة .

ــ فالشعراء المتبنون للمفهوم القديم بجوانبه السلبية كانوا مدفوعين إلى ذلك بضعف التكوين الثقافي وعدم الإلمام بالثقافة الشعرية ، أما الذين تبنوا المفهوم الحديث للشعر كانوا مدينين في ذلك لتكوينهم الثقافي المتميز ولعنايتهم المتميزة باللغة الشعرية ، كما أن نظرة الشعراء الجزائريين إلى وظيفة الشعر تأثرت بدورها بالعاملين السابقين ، حيث نجد بعض الشعراء يتجه بشعره وجهة اجتماعية بحتة ، و يعنى بالمضامين و الأغراض دون غيرها من جوانب الشعر ، مما جعل شعرهم لا يؤدي وظيفة الشعر الجمالية ، وإنما يؤدي دور

[1] بلقاسم عبد الله، مفدي زكرياء شاعر مجد الثورة حوارات ذكريات ، ط2 ، سنة 2003 ، ص 29 .

الخطابة وأغراضها التعليمية و الإرشادية بسبب ضعف التكوين الثقافي للشعراء وضعف صلتهم بالتيارات الأدبية ، بينما نجد بعض الشعراء يوفق إلى الجمع بين مهمة الشعر الفكرية والاجتماعية ووظيفته الجمالية ، بسبب تكوينهم الثقافي الجيد و إلمامهم بالتيارات الأدبية الحديثة ، مما جعل شعرهم جميلا ومعبرا و مفيدا في الوقت نفسه .

ــ فالدارس لوظيفة الشعر عند الشعراء الجزائريين يجد نظرتهم إليها وموقفهم منها مماثلا في صلته بالقديم والحديث لموقفهم من مفهوم الشعر ، ذلك أن بعض الشعراء أعلن عن رأيه في وظيفة الشعر و قصرها على الجانب الاجتماعي بحيث يؤدي شعره مهمة الخطابة بأساليبها. ونجد ذلك عند رمضان و أحمد سحنون ، و النظرة نفسها تستخلص من شعر زملائهما الذين لم يعلنوا عن رأيهم في القضية السابقة[1] ويقول رمضان حمود عن وظيفة شعره :

وشعري كالحسام يصون عرضـــا بـــلا حـــرب عـــوان ولا قتـــال

يصـــادم من يغيـــث بمجد قومـــي و يطعن ذا الظلال بلا نـــتـــزال

يزمجـــر كالهـــزبر بـــكـــــل واد على حق تضعضع أو مـــــزال[2]

كما أن علاقة الشعر الجزائري بالحياة الوطنية تتمثل في كونه سلاحا ينازل به الشاعر خصوم وطنه و أمته ويدحض به آراء الخصوم و يحث مواطنيه على اليقظة و النضال أما صلته بالحياة الاجتماعية فتبدو من خلال إرشاد الناس و حثهم على السلوك الحسن ، فالشاعر الجزائري هنا يسخر شعره لخدمة الحياة الاجتماعية و يناضل به ضد الاستعمار ، ويدعو إلى النهضة و ينشر الوعي الوطني والأخلاقي و الديني ، والملاحظ أيضا على الشاعر الجزائري زيادة على عنايته بالجوانب الاجتماعية أنه لم يهمل الجانب

[1] أنظر ، أحمد شرفي الرفاعي ، الشعر الوطني الجزائري ، دار الهدى ، ع مليلة، الجزائر ، ص 164 .

[2] المرجع نفسه، ص 165.

الجمالي ، فقد شبه أثر شعره في النفوس بأثر النسيم المعطر ، وصور خياله بأنه تطلع إلى جمال الكون ، كما شبه شعره باللآلئ و هي أحد نماذج الجمال و الشاعر هنا يهدف إلى تحقيق غايتين متماثلتين بشعره هما :

1) النضال ضد الأوضاع السيئة في المجتمع الجزائري .

2) إنشاء شعر جميل ومؤثر .

ــ و بهذا يربط بين المهمة الاجتماعية والجمالية للشعر و يعود بنا الشاعر إلى نظرة القدماء من الشعراء في وظيفة الشعر ، حيث أنه عندهم يؤدي الوظيفتين في وقت واحد : الجمالية والفكرية .

ــ كما أن مفهوم الجمال الشعري نفسه يتطور من عصر ثقافي إلى عصر ثقافي آخر و يستمد من خصائص كل بيئة ثقافية عناصر خاصة بها ، و الغاية الجمالية بالنسبة للشعر الوطني تتمثل في الروح الوطنية التي يعبر عنها الشعراء ، كما تتمثل في نضج الآراء السياسية و ما تتبناه من حلول ملائمة للقضية الوطنية ، بالإضافة إلى ما يلائم الغرض الوطني من قوة الأسلوب ومتانته[1]

ــ ولقد مر الشعر الجزائري بعدة مراحل ساهمة في تطويره كما مرت عليه عهود و فترات تأرجح فيها بين اليأس والأمل مرة وحاول أن يدفع بعجلة التطوير الفكري إلى الأمام مرة أخرى ، والذي يلفت النظر هو أن حلقة من حياة الشعر قد انقطعت ، أو كادت تنقطع و تبدأ هذه الفترة مند بداية الغزو الفرنسي على الجزائر التي كانت نتيجته خمود ا في القريحة وركودا في الفكر وهمودا في الأرواح ، وكرد فعل لهذه السياسة الاستعمارية اتجه الشعر الجزائري كما يرى الدكتور عبد الله الركيبي في كتابه " دراسات في الشعر الجزائري الحديث " إلى العزلة والانطواء على الذات واجترار الأحداث في صمت

[1] المرجع السابق ، ص 166 .

وسكون كما يبدو لنا عند الشاعر الأمين العمودي الذي عبر عن سبب بلائه وعذابه و أسنده إلى الدهر الذي يقف في طريقه و يسد في وجهه أبواب الأمل فقال :

نفسي تريد العلا و الدهر يعكسهـــا بالقـــهر والزجـــر إن الـــدهر ظـــلام

إن الـــزمان سطـــا عـــني بسطوتـــه ما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام[1]

ــ هذا من جهة ومن جهة أخرى اصطبغ الشعر الجزائري بصبغة الدعوة إلى النهوض و المناداة بالتحرك و التحرر من هذه القيود الكثيرة التي عانى منها الشعب آمادا طويلة " وجاء الشعر صداً معبرا عن كل هذا دون أن يرتبط بإتحاد معين ودون أن يكون بوقا لهذا أو ذاك ، إنما جاء ليكون مسجلا أمينا لأماني الشعب و آلامه و ليقول كلمته وكلمة الشعب ، ولا ينافق هذا ولا يجامل الآخر " [2]

ــ حيث عمل الشعر في هذه الفترة على الدعوة إلى نبذ الخلافات و التكتل و الوحدة والدعوة إلى التعليم والثقافة وتحرير العقول من الوهم والجمود وهذا ما نراه عند الشاعر محمد العيد آل خليفة في دعوة ملحة صريحة إلى النهضة و الأخذ بأسباب الرقي و التقدم في دعوة يستصرخ فتية الوطن وأبناء الضاد في الجزائر و يدعوهم أن يحكموا الرأي في قوله :

يا حماة البلاد يا فتية الضـــــــاد ترى هل لكم من الرأي مغـــــن

سار جيرانكم مع العصر شوطـــــا ووقفتـــم مـــا بيـــن وهـــم وهـــن

ــ ومع مجيء ثورة نوفمبر ارتمى الشعب في أحضانها بكل ما لديه ، وكرس لها جهوده و بذل دمه و ضحاياه من أجلها ، فقد وجد فيها متنفسه من الحرمان الذي عاناه من

[1] عبد الله الركيبي ، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ، ط1، دار الكتاب العربي ، 2009، ص 25 .

[2] المرجع نفسه ، ص 38 .

الحكم الأجنبي ، كما وجد فيها الأمل المرتجى في تحقيق أحلامهم وأمانيهم ، ووجد فيها التعبير الحقيقي عن إحساسه و متطلباته ، و بهذا دخل الشعر الجزائري مرحلة حاسمة جريئة وهي مرحلة الثورة والانطلاق و التعبير بقوة والدم عن مطالبه ، بات " أول نوفمبر " ليلة من أخلد الليالي في نفوس الجزائريين ،(إنها ليلة القدر الكبرى) كما سماها الشاعر" مفدي زكريا " ومن الطبيعي أن يتحدث شعراؤنا على هذه الليلة و ينوهوا بأول نوفمبر رمز الثورة وبداية الانفجار، وهذه القصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر مفدي زكريا تحدث عن هذه الليلة الخالدة التي دعاها التاريخ فاستجابت له.

دعـــا التـــاريـــخ ليلـــك فاستجـــابـــــا " نوفمبر" هل وفيت لنا النصابا

وهل سمع المجيب نداء الشعـــــــــب فكـــانت ليلـــة القـــدر الجـــوابا

المبحث الأول :

1 ــ خصائص الشعر الجزائري .

لقد كان الشعر الجزائري دائم الصلة بأصوله العريقة ، كما كان ذا صلة بالتيارات الأدبية الحديثة وكلا الجانبين ترك آثار معينة في الشعر الجزائري ، من ذلك يستمد خصائصه ، ومن يتتبع الدراسات الأدبية في الشعر الجزائري يجد أن الشعر الجزائري تميز بخصائص كثيرة أهمها :

الخصائص الموضوعاتية .

ــ **شعر قضية وشعر نضال ضد الاستعمار** :إن النضال ضد الاستعمار سمة اكتسبها الشعر الوطني الجزائري من ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فالوطنية تعني الاعتزاز بالوطن وأمجاده والتعبير عن حبه والولاء له ، فكل المعاني الوطنية ارتبطت بالنضال ضد الاستعمار المتسلط على الوطن والذي ينكر على الجزائريين حقهم في التعبير عن حبهم لوطنهم والاعتزاز به ، فالشعر الجزائري هو شعر دفاع عن الحقوق الوطنية ، و الاحتلال المتنصب في أرض الوطن قد استولى على الحكم ومصادر الثورة والتجارة واحتكر كل الخيرات ومنافع الوطن ، فقد تصدى هذا الشعر للمحتلين الفرنسيين وردع مزاعمهم الكاذبة ودافع عن حقوق الشعب الجزائري ، وحين فشلت الوسائل السلمية في الدفاع والمطالبة بالحقوق تبنى الشعر الوطني الجزائري الدعوة إلى الثورة ومواجهة الاستعمار بعنف .

2 ــ التشابه في المواضيع والأغراض : ومصدر هذه السمة يتمثل في تأثير المصلحين على النهضة ويعكس تأثيرها القوي على الأدب في فجر النهضة ويعود ذلك إلى أن حركة الإصلاح كانت إطارا ثقافيا ضد معظم المثقفين باللغة العربية بعد تشتت وضياع ، ووجههم إلى غايات دينية وثقافية ووطنية مند أن بدأت الدعوة إلى تأسيس هيئة وطنية

تضم شمل المثقفين وتنظم جهودهم ويبدو ذلك واضحا مما حددته صحيفتها " المنتقـــــد" و" الشهاب" من أغراض للكتاب والأدباء سرعان ما تجاوب معها الجميع في إنتاجهم ، إلا أن هذا التوجيه لجهود المثقفين في مجال النضال الديني والثقافي والوطني كانت له بعض النتائج السلبية على الحياة الأدبية ، فقد دابت شخصيات الأدباء في إطار الحركة الإصلاحية وخضعت آرائهم لتوجيهها وانعكس ذلك على إنتاجهم وأدى إلى سمة التشابه في المواضيع التي يتطرق إليها الشعراء .

ــ كما أن التفات الشعراء حول موضوع واحد أو مواضيع متشابهة وتناولها من جوانب متقاربة تعكس أهمية الموضوع الملتف حوله عند المصلحين ، وحرصهم على كسب الأنظار له ، من ذلك موضوع الصحافة الوطنية والإشادة بها والتنويه بدورها في تحقيق النهضة ، فكتاب " شعراء النهضة في العصر الحاضر " يضم الجزء الأول منه ست قصائد عن الصحافة الوطنية ، من ذلك قول محمد العيد على لسان الشهاب :

خليا عنكما حديث احتجاجـــــــي عرجا بي على العلى عرجا بي

واركبا بي متن النجاح وخوضـــا بي عباب الإصلاح فهو عبابي

" وقصيدته حياة نشاط " وقد نضمها على لسان صحيفة " صدى الصحراء " ويضم الكتاب السابق قصيدتين للسعيد الزاهري نظمهما في الصحيفة الوطنية وقصيدتين للقاني بن السايح عن الموضوع نفسه ، ويضم ديوان أبي اليقظان قصيدتين له عن الصحافة الوطنية ،كما أن لرمضان حمود قصيدة حول الموضوع نفسه" [1]

ــ بالإضافة إلى موضوع الصحافة نجد سمة التشابه تلاحظ في القصائد الوطنية وذلك للأوضاع السيئة والداعية للنهضة فنجد قصيدة اللقاني بن السايح "إلى الشعب الجزائري"

[1] أحمد شرفي الرفاعي ، الشعر الوطني الجزائري ، دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر ،ص 232 .

يقول فيها .

بني الجزائر هذا الموت يكفينـــا لقد أغلت بحبل الجهل أيدينـــــا

بني الجزائر هذا الفقر أفقدنـــــا كل اللذائذ حين يقتفي حينـــــــا

بني الجزائر هذا اللهو أوقعنـــــا في سوء مهلته عمت نوادينـــــا

فالأبيات السابقة نموذج للقصيدة كلها وهي في مجملها تصوير للأوضاع التي فرضها المحتل على الشعب الجزائري وفي الوقت نفسه دعوة إلى النهضة والتحرير والقصيدة السابقة متشابهة في موضوعها وأسلوبها مع القصيدة التالية لرمضان حمود والتي يقول فيها:

بكيت على قومي لضعف نفوسهم على حمل أثقال الهلا والفضائـــــل

بكيت عليهم و الحشا متقطـــــع بكائي على طفل ضعيف العزائـــــم

بكيت عليهم إذ رأيت حياتـــــهم مكدرة مملوءة بالعجـــــــــــــائب

فكلتا القصيدتين تتضمن عتابا قويا لأبناء الجزائر على خمولهم وتبكي أوضاعهم وتدعو إلى تغيرها.[1]

3 ــ واقعية الشعر الجزائري : الذي نعنيه هنا ليس الواقعية التي تعني " الاتجاه بالأدب نحو الكشف عن الشرور والآثام الكامنة في النفس البشرية " وإنما هي واقعية الموضوع ، وهي نابعة من وطنية الشعر عند الشعراء وهي وظيفة اجتماعية وسياسية وأخلاقية ، ربطت بين الشعر الوطني وبين الجوانب السابقة للحياة الاجتماعية واستمد منها أغراضه

[1] المرجع السابق ، ص 233 .

واهتم بالقضايا اهتماما شاملا انعكس عليه مفهوم الوطنية الواسعة بجوانبه الدينية والثقافية والأخلاقية والسياسية .

ــ ومظاهر الواقعية بمفهومها السابق تتمثل في الأغراض المستمدة من الواقع الوطني والمتتبع لهذا الجانب في الشعر الوطني الجزائري يلاحظ أن أغراض الشعراء وأفكارهم مستمدة من الواقع المعيشي وتتبعه بالوصف ، ولا تتجاوز ذلك إلى الخيال الشعري أو الرمز الفني بل تستوحي من الواقع أغراضا وطنية ، وصورا للبأس الذي عاشها الشعب الجزائري وتكشف بذلك عن مشاعر الألم التي تصرخ في النفوس بسبب الاحتلال وقيوده البغيضة وتبين عمقها وأبعادها [1]

2 ــ الخصائص الفنية :

الضعف اللغوي : سبق أن ذكرنا أنه أكبر المشكلات التي يعانيها الشاعر العربي المعاصر مشكلة التعامل مع اللغة أداة للتوصيل ، فإذا كان الشاعر العربي يعاني من هذه المشكلة ، فإن معاناة الشاعر الجزائري الذي ظلت تواجهه هذه المشكلة باستمرار وبشكل حاد تصل إلى حد التأزم أحيانا ، باعتباره يعيش في محيط ما يزال يعاني من مأساة الاغتراب اللغوي ، ويكافح في استماتة في سبيل تعريب الجماهير ، ورفعها إلى مستوى المتلقي المتذوق .

ــ إن ظاهرة الضعف اللغوي المتفشية في هذا الشكل تعود إلى عدة أسباب ، قد يكون أهمها الاكتفاء الهزيل بالقراءت في الشعر الحديث و المعاصر و الإنكباب عليه دون العناية بالتراث الفكري والأدبي ، (قد رأينا موقف هؤلاء من التراث) وليس من شك في أن الشاعر الذي لا تمتد جذور ثقافته الشعرية في التراث تظل تجربة مهتزة ، وأفكاره مترجحة ، وحصيلته اللغوية فقيرة ضئيلة ، ولن يعوض هذا النقص الإطلاع على الإنتاج

[1] المرجع السابق . ص 236 .

الأدبي المعاصر ، ولا المتابعة لنظريات الأدب و الدراسات النقدية المتجددة وهذا ما يؤكده الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري حيث يقول :

((إن أديبا لم يحفظ البحتري ، وأبا نواس ، وابن الرومي ،و المعري ، وأبي تمام والمتنبي أولم يدرس الجاحظ والأخطل ، وابن قتيبة ، وأبن الأثير وأبا الفرج و دعبلا، والقرآن ،و نهج البلاغة لا يمكن أن يكون شاعرا ولا كاتبا ، وإن قرأ مليون رواية وكتاب أجنبي وإن درس خمسين عاما أساليب الشعر والأدب العربي))[1]

ــ كما يرد ضعف اللغة إلى أن أغلبية الشعراء الجزائريين مدمنون على قراءة الشعر الوافد من لبنان أكثر من قراءتهم للشعر الوافد من العراق أو من مصر وسوريا ، وقد بدا

معروفا ما آل إليه الشعر الجديد في لبنان من حيث المستوى اللغوي ، وكيف شوهت أصالته العربية النظريات الغربية الدخيلة التي أصبحت في المدة الأخيرة تعتمد تجاوز قواعد اللغة العربية ، من نحو وصرف وبلاغة ، وعروض بدعوى التجديد المستمر .

ب ــ استخدام اللغة البسيطة :

إن ضرورة نمو الشكل الشعري وتدرجه في التطور المستمر بدون توقف ، يقتضي ، أن تكون لغته أول مظهر من مظاهر التطور والنمو ، لذا فإن فإن القاموس الشعري القديم والدلالات الخاصة به من صيغ الأفعال واستخدام الغريب والإنشاء ، لم تعد صالحة ولا قادرة على احتواء التجربة الجديدة ، ولعل أن الشعراء الجزائريين ولا سيما في الاتجاه الجديد كانوا أكثر وعيا من سابقيهم في تمثل هذه المكانة التي تحتلها اللغة في العمل الشعري ، وحرصهم على استخدام لغة بسيطة يعتبر من أبرز خصائص هذا الشعر

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط1، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص 366.

، وقد تجلى الوعي بصفة خاصة في شعر بعض الرواد مثل : أبي القاسم سعد الله ومحمد صالح باوية ، وأبي القاسم خمار ، ومحمد الأخضر عبد القادر السائحي وغيرهم .

وكمثال على هذا التمثل الواعي نأخذ هذا النموذج من قصيدة أبي القاسم خمار التي كتبها إلى أخته البعيدة عنه في الصحراء الجزائرية يعبر فيها عن شوقه الطاغي إلى مسقط رأسه وحنينه الجارف إلى ذكريات الطفولة ، مصورا من خلال ذلك في لغة بسيطة هادئة نقمته على المستعمر الذي كان السبب في معاناته هذه يقول خمار موجها الخطاب إلى " يولا " بعد أن مرت ست سنوات على الثورة الجزائرية .

أختاه (يولا)

يا ليتني لو كان لي قلب صغير

يحي مع النبض السريع كقلب طير

يحي على حذف ذو نظرة

وجناحه يسمو ويهبط بين آونة و أخرى

من أجل نظرة

من أجل نقرة [1]

ــ إن جيل هؤلاء الشعراء كان على وعي بهذه الاستخدامات التي لا تبالغ في الانسياق وراء تقنيات القصيدة الجديدة على حساب المستوى اللغوي للغة الشعرية ، فهم قد أحسنوا استعمال البساطة في التعبير عن مشاعرهم ، وحافظوا في الوقت نفسه على لغة عربية سليمة القواعد فصيحة النطق والأداء .

[1] محمد ناصر،المرجع السابق ، ص370 .

ج) التعبير المباشر و النبرة الخطابية : لقد أدى تأثير المصلحين أيضا إلى ظهور سمة بارزة في الشعر الجزائري هي الروح الخطابية ، فمع أن مهمة الشاعر هي الكشف عن مجهول النفس الإنسانية و الإيحاء لها بالصور الحقيقية كما تتراءى للحدس وتترجم عنها الأحاسيس ، إلا أن الشعراء الجزائريين تخلو عن المهمة السابقة وسلكوا نهجا خطابيا واضحا وعبروا عن آراء خاصة ، و حاولوا الإقناع بها[1].

ــ لقد كان الأسلوب الخطابي أقرب السبل التي مكنت الشعراء الجزائريين من إيصال مبادئهم وأفكارهم إلى الجمهور ، و أصدق الوسائل تجاوبا مع الجموع التي يحذوها التثاؤب ، و يمزقها الضياع ، أن يتخذ أسلوب الإثارة و الوخز ، والدعوة الصارخة ، فتعتمد القصيدة على الاستفهام و الإنكار و التعجب ، والنداء والتحريض و الأمر والنهي،و إذا كان الجمهور الجزائري كما وصفه (الزاهري) في مستهل الثلاثينيات

ضقت ذرعا برحب هذا الوجود وبقوم طول الزمان رقـــــــــود

أوجه مثل أوجه الناس ، لكـــــن خشب من ضلالة وجمـــــــــود

و رمضان حمود في العشرينيات :

يـــا رجـــال الشعـــب ،ويحكم هبوا فقد عمت البلوى كما استفحل الخطب

أفيقوا فلا عيش يطيب لراقـــــد وصونوا لنا مجدا، ليفتخر الشـــعب[2]

وهنا نلاحظ نبرة خطابية شديدة اللهجة عند رمضان حمود و الزاهري يدعو فيها الشعب الجزائري إلى الاستيقاظ و الإفاقة ، فيأتي صورة لعمق النوم الذي يغفوا بفيه الجمهور الجزائري

[1] أحمد شرقي الرفاعي ، المرجع السابق ، ص 236 .

[2] صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 341.

ــ و لعل هذا الأسلوب الخطابي كان سببه أن أغلب القصائد كانت قصائد جماهيرية ، لم تلتقي بالجمهور إلا على رؤوس المنابر وفي المحافل العامة ، والقصيدة التي تشرف على محفل صاخب في حكم مستبد ، لن تكون إلا صدى لصيحة وفوران شعور ،وقد كانت هذه المناسبات الفرص الوحيدة للقول والإلقاء ، حتى أعادها الشعراء واستكانوا لها فحبستهم في دوامتها ، إنتاجا و أسلوبا .

د) **الجمود وعدم التعاطف النفسي** : قد تكون النزعة الحسية التي غلبت على الشعراء الجزائريين ووقفتهم الصارمة عند حدود الشكل الموصوف و اهتمامهم الشديد بالمظهر الخارجي منه ، من الأسباب التي جعلت الصورة الشعرية عندهم موسومة بالجفاف والتحجر و الجمود ، فقد لا يجد المتلقي فيها سوى نوع من الصناعة الشكلية من الحشد المتتابع للمشاهد دون أن تثير في أعماقه انفعالا أو تعاطفا .

ــ وقد وقف العديد من الشعراء الجزائريين أمام الصحراء مأخوذين بجلالها المهيب مفتونين بسكونها العميق ، مبهورين بامتدادها المنبسط الذي يضيع في مداه النظر أمثال : محمد العيد ،و محمد الهادي السنوسي ، وأحمد سحنون ،و أبي اليقظان،و مفدي زكريا ، ومحمد الأخضر السائحي و غيرهم من الذين وقفوا جميعا موقف خشوع و عبادة و التفتوا إليها لفتة وله وحب ، لكنهم اختلفوا في التعبير عن هذه الأحاسيس و تفاوتوا في ذلك بين من حاول النفاد إلى تصوير مشاعره و أحاسيسه ، وبين من اكتفى من البداية بالوصف الخارجي والتعبير المباشر ، وقد كانت وقفتهم تلك ذات دلالة عميقة لارتباط هؤلاء الشعراء جميعا بالصحراء عاطفيا و نفسيا ، فهؤلاء الشعراء المذكورين جميعا من أبناء الصحراء الجزائرية نشئوا بين أحضانها و كبروا في مرا بعها و استلهموا الشعر منها ــ ولعل الشاعر مفدي زكريا من أبرز الشعراء الجزائريين اهتماما بوصف الطبيعة الجزائرية ومن أكثرهم افتتانا بمفاتنها ، فهو يمتاز بقصائده العديدة التي يتغنى فيها بسحر

البلاد الجزائرية ، ويطلع فيها على مواطن السحر و الجمال في شمالها وجنوبها غربها وشرقها .

ــ ويقول مفدي زكريا :

وفي صحرائنا جنات عـــــــــدن بها تنساب ثرواتنا انسيابـــا

وفي واحاتنا ظل ظليـــــــــــــل تفور بها نوا عرها حبـــــابا

وفوق سمائنا قمر منيـــــــــــر نطارحه الأحاديث العذابـــــــا

وتحت خيامها انبجست عيـــــون لها هاروت قد سجد احتسابـــــا[1]

ففي هذا النص الشعري نجد مفدي زكريا يتناول مشاهد الصحراء تناولا استعراضيا سريعا لم يتخلى فيه عما عرفه التناول التقليدي من وقوف عند السطح من المناظر الموصوفة ، ولعل رغبة الشاعر في أن يتناول بريشته كل ما تمتاز به هذه البيئة من خصائص الجمال والجلال ، فوتت على الشاعر فرصة التعمق إلى بواطن الأشياء ، واستبطانها استبطانا ذاتيا [2]

ــ لقد حاول مفدي أن يشمل بنظرة واحدة أجمل و أروع ما في الصحراء من خصائص فحدثنا عن واحاتها الظليلة ، ومائها العذب ، والقمر المنير ، وعيون بنتاها الساحرات وشمسها الفاتنة وقت الغروب ، و رملها الذهبي الحريري ونخلها المثقل بالرطب والجني و سحر نغمة راعيها و وداعة نفسه إلى آخر هذه الصور المتلاحقة بسرعة يقول مفدي :

[1] مفدي زكريا ، ديوان "اللهب المقدس" ، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، الجزائر، 2009، ص35، 36 .

[2] محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ،ص 457.

يراقص رملها الذهبي سمسا توعه فيمنعهـــــــا الذهابــا

وبين غزالتين جرى سباق فكان الثأر بينهما طلابـــــــــا[1]

ــ إن ما يلاحظ في هذا النص و النص السابق هو انعدام العلاقة بين صوره بعضها ببعض من جهة وبينها وبين الشاعر ذاته من جهة أخرى ، فهو هنا يصف الواحة ، ثم ينتقل مباشرة إلى القمر في السماء ، وينزل مرة أخرى إلى الجمال الصحراوي تحت الخيام ، ثم يصف الرمل الذهبي والشمس الغاربة ، و ينتقل إلى وصف الغزلان فهذه الرؤية التقليدية التي تعتمد الفصل بين الأشياء و تصويرها مجزأة من الأسباب التي تجزئ الصور و تمزقها ، لأن الشاعر لا يعتمد في بنائها على التكامل والتداعي النفسي .

[1] مفدي زكريا، المصدر السابق ، ص 36 .

المبحث الثاني : قضايا في الشعر الجزائري .

ــ رغم أن الإستعمار قد عزل الجزائر عن محيطها العربي و الإسلامي ، و حولها إلى سجن تحيط به الأسوار العالية ، إلا أن هناك نافدة صغيرة تتطلع منها الجزائر إلى الخارج ،لقد كان تطلعا نحو جهة معينة هي جهة الشرق ، وكان تعبيرا عن إحساس وجداني أخوي تثيره الروابط والمصائر المشتركة وبقية هذه المشاعر يثيرها الأدب جيلا بعد جيل ، ولم تستطع الحدود الجغرافية التي وضعها الاستعمار أن تحول بين النفوس ، لهذا لم يختلف الشعراء عن مواكبة الأحداث التي تقع في غير بلدانهم ، وبالفعل فقد كان الشعر وسيلة لرصد الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تمر بها الأمة العربية ، كما كان وسيلة قوية و أداة فعالة في توجيه الجماهير لأنه عبر بصدق ومعاناة عن الهم العربي الذي يحمله شعراءنا .

ــ و سنشير إلى أهم القضايا التي تناولها الشعر الجزائري والشعراء الجزائريين الذين لم يكونوا معزولين أبدا عما كان يجري داخل الساحة العربية و في مقدمتها :

1) قضية فلسطين :"إننا لسنا في حاجة أبدا إلى أن تعدد الروابط التي تربط فلسطين والجزائر و إننا لا نحتاج إلى أن نضرب أمثلة للمقارنة بين حالة الجزائر وفلسطين "[1] ولا حاجة أبدا إلى أن نقارن بين واقع الاستعمار بشتى صوره فكلاهما عرف الإستعمار الاستيطاني ، و كلاهما تعرض إلى محاولات القضاء على مقوماتها ، وهذا ما يفسر اهتمام الشعراء الجزائريين بالقضية الفلسطينية ورفضهم العنيف لكل أشكال الاستعمار

و التسلط والغزو ، فقد رافق الشعر الجزائري هذه القضية مند ظهورها على المسرح

العالمي و تابعها في جميع مراحلها و أطوارها المختلفة ، كما كان يستغل كل مناسبة لتأييدها والوقوف إلى جانبها .

[1] عبد الله ركيبي : قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص 41 .

ــ و يعتبر الشاعر محمد العيد آل خليفة من بين أكثر الشعراء الجزائريين تأثرا بالقضية الفلسطينية فقد انفعل بها و عبر عنها في شعره ومن ذلك ما قال محذرا الصهاينة ومتوعدا لهم:

قل لابن صهيون اغتررت فلا تجر إن ابن يعرب ناهض للثـــــــأر

أعرض عن خطط السلام مواليـا فوقعت منها في خطوط النـــــــار

لا تحسبن بان صبحك طـالـــع فالبدر ويحك ــ خادع للســـاري[1]

ــ وها هو الشاعر أحمد سحنون يدعوا إخواننا في الشرق أن يتكلموا و يسألوا زملاءه الشعراء أن يدعو مواطنيهم إلى التخلي عن الجبن والبخل وأن يحرضوا الجيش العربي على خوض المعركة حتى النصر فيقول :

مواطئ أقدام النبيين و الرســل و أرض نبي االوحي بوركت من نسل

فداك الفدى لا تقبل قسمة العدى وللموت سيري لا تبيتي على الذل

يا زعماء الشرق ضموا صفوفكم ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمــل[2]

ــ و أحداث فلسطين حركت إحساس شعراء آخرين ، وهذا الشاعر العقون يوصي الشعب الجزائري الثائر أن يولي وجهة إلى إخوانه في الشرق أملا من نصر مأمول يحققه أبناء العرب على الصهاينة فيقول :

يقشــع الغـــيم عــن شعـــــبي ويجلو الظلام الظلم بالزأر و الثوب

يخطي بآمال عذاب جمــيـــــــلة وكم جني عذب لذي الأمل العـــذب

---

[1] محمد العيد آل خليفة ، الديوان دار الهدي ، ط1 ، عين مليلة، الجزائر . سنة 2010 ، ص 299 وما يليها.

[2] السعيد بو قار، فلسطين في أدب الإبراهيمي ، جامعة الإخوة منتوري ، قسنطينة ، كلية الأدب و اللغات ، رسالة ماجستير ، سنة ، 2007 ــ 2008 ، ص76 .

يجـــاهد أعـــداء الحقيقـــة جهـــــده ويرميهم مثل الشياطين بالشهـــــب

دماء بني العرب استفاقت فأيقظـــت نفوسا فثارت تطير مع االســــــرب[1]

ـــ و هذا الشاعر مفدي زكرياء في قصيدته " رسالة الشعر في الدنيا المقدسة " يلوم أولائك الذين يتفرجون على ما حصل في فلسطين بعد النكبة ، والذين كانوا السبب في ذلك فأضاعوها بينما إسرائيل أخذت قطعة من وطنهم وهي تترصد الباقي فيقول :

ويح العروبة إ...كم ديست قداستها وسامها الخلف إفلاسا وخذلانـــــا

وعـــاكفيـــن عن النعمى يهـــدهـــدهـــم صفو الليالي وما رقوا لبلـــوانا

ناموا..و في الدار (إسرائيل) ترصـــــدنا و أغمضوا دون (إسرائيل)أجفانا[2]

ب) الوحدة العربية :

كان الوطن العربي واحدا منذ عصر الخلفاء الراشدين عاصمته دمشق ، أو بغداد ، أو القاهرة وما تجرأ العرب إلا بعد أن ابتعدوا عن عامل وحدتهم وعما يحفظ تماسكهم ،

و يوم كانت الأمة العربية منسجمة و توفرت لها عناصر الانصهار في قالب واحد بفضل الإسلام استطاعت أن تكون وحدة اجتماعية وقوة سياسية وعسكرية ، رغم تعدد الأجناس ، ويوم بدأت تنحرف عن الإسلام و تتنازل عنه شلت وذهبت ريحها فتمكن منها العدو

و أقام بين شعوبها حدودا جغرافية ونفسية مصطنعة ، ومع مطلع القرن الماضي بدأت أصوات المصلحين تنادي بعودة الأمة إلى سالف عهدها وواكب الشعراء هذه

[1] المرجع السابق ، ص77 .

[2] مفدي زكريا ، المصدر السابق، ص 247 .

الدعوات ،وأخذوا الصدارة في الترويج لفكرة وحدة الأمة اعتمادا على عناصر وحدتها سابقا[1] .

ــ لقد ذهب بعض الشعراء إلى اعتبار وحدة صف العروبة دينا ومن حاد عنه عد كافرا.

وحــدة الصــف في العــروبة ديــن كل من خان وحدة العرب كافرا

و هذا الشاعر محمد العيد آل خليفــة الذي يعد أكثــر الشعراء الجزائــريين اهتماما بهذا الجانب نظرا للحنين القوي الذي نجده في شعره للشرق الذي يعني العروبة ، والعروبة التي تعني الإسلام ، ففي قصيدة له نشرت سنة 1936 دعا فيها المسلمين إلى نبذ الفــرقة و الشقاق الذي يراه مرضا يجب علاجه لأن المسلمين ملة واحدة ، وبسبب بعدهم عن دينهم فقدوا زمام أمورهم ، وحادوا عن الحق ولو عادوا إليه لرأبوا صدعهم وصاروا سادة العالم كما كانوا[2]

أرى داء الشقاق بنا تفشـــى كيف يكون لنا منه التوقي ؟

بني الإسلام خلوا الخُلف إنـــــا إلى الإسلام نعزى دون فرق

ولو أنا على الحق اتفقنـــــا لكنا قادة الدنيا بحـــــق[3]

ــ كما نرى الشاعر مفدي زكريا يطلق العنان لقلمه ويدعو إلى توحيد صف العرب " فمما لاشك فيه أن زكريا كان أكثر الشعراء الجزائريين المرددين والمرحبين بالوحدة العربية ، إذ يوظف العروبة بالمفهوم الحضاري الشامل ، بل إن العروبة هي الشجرة

[1] أنظر ، إبراهيم لقان ، ملامح المقاومة ضد الإستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري قسنطينة ، كلية الآداب واللغات ، 2006 ــ 2007 ، ص97 .

[2] المرجع نفسه، ص98 .

[3] محمد العيد آل خليفة ، ديوان ، المصدر السابق ، ص 80 .

والجزائر والشام ومصر والعراق وسائر البلاد العربية هي أغصانها المتعانقة "[1]

يا أمة العرب الكرام كرامـــــــة لك في الجزائر ، حرمة وذمـــــــام

في كل أرضي للعروبة ، عندنـــا رحم تشابك ، عندها الأرحـــــــــام

إن صاح في أرض الجزائر صائح لبته مصر ، وأدركته شـــــــــام[2]

فليس هناك أدعى إلى الوحدة بين البلدان العربية من تتشابك الأرحام وأواصر النسب الواحد بينهما ، نتيجة تاريخها الطويل فإذا توجع في الجزائر موجع أحس به من بالشام فتألم لألمه واندفع يواسي أخاه واهتزت قلوب تخفق في مصر ، وأقضى ذلك الوجع مضاجع الإخوة في العراق وارتج في تونس شعب ماجد بالرغم مما يعانيه من أرزاء وخطوب لم تمنعه من أن يفزع لنجدة أخيه في الجزائر وأسرعت إليه المغرب وتألم لبنان ، واستنجد بالدم العربي النابض في أعماق التاريخ[3]

إما تنهد بالجزائر موجـــــــــع أسى الشام جراحـــــــه ، وتوجعا

واهتز في أرض الكنانة خافـــق وأقض في أرض العراق المضجعا

وارتج في الخضراء , شعب ماجد لم تثنـــــــــــه أرزاؤه أن يفزعـــا

وهوت مراكش حوله ، وتألمـــــــت لبنان ، واستعد جديس وتـــــبعا![4]

ج) ــ الوحدة المغاربية : إن الوحدة المغاربية كانت حاضرة مند القدم ومازالت تعتمل في تاريخنا الراهن نظرا للعوامل المشتركة كالدين واللغة والانتماء والفضاء الجغرافي

---

[1] حنان بومالي ، سجنيات مفدي زكريا :دراسة فنية تحليلية ، مذكرة تخرج اللسانس، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005 ، 2006 ، ص 68 .

[2] مفدي زكريا، المصدر السابق، ص 47 .

[3] يحيى الشيخ صالح، المرجع السابق، ص 132 ــ 133 .

[4] مفدي زكريا ، المصدر السابق ص 53.

الموحد، فهي كلها ساهمت بشكل مباشر في بلورة العمل المحوري لدى رواد الحركة الوطنية وتقوية الشعور لدى الشعوب بضرورة التضامن فيما بينها للتصدي للاستعمار وذلك من خلال تنسيق العمل الوحدوي الكفاحي المشترك سواء السياسي أو من خلال المقاومة وجيش التحرير، ومنذ الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر جمعيات تحمل بدرة الوحدة مثل جمعية نجم شمال إفريقيا وجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين وخلال أربعينيات القرن الماضي انتقل العمل الوحدوي من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال بظهور الهيئات واللجان التي عملت على التعريف بالقضية المغاربية ، هذا في المقاومة السياسية ، أما في المجال الأدبي فقد كان للشعراء حظ وافر في التغني بالوحدة المغاربية ومن بينهم شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا " فالمطَلع على إنتاج الشاعر يدرك للوهلة الأولى بل ويلمس إيمانه الصادق والحار بوحدة المغرب العربي ، بل ويذهب في تصويره كأنه جهاز تنفسي ، القلب تمثله الجزائر ، والرئتان يمنى وهي المغرب ويسرى هي تونس ، وعلى وجه المعاينة كما ورد في تعبيرهم فالمغرب العربي منطاد ذي جناحين "[1] ثم إن شعر مفدي زكريا في هذا الاتجاه يكمن في تمييزه الواضح عن غيره من الشعراء الذين عالجوا قضية المغرب الكبير فقد نجد هذه القضية مطروحة عند هذا الشاعر أو ذاك و لكن لا تعدو كونها خواطر سريعة وتلميحات عابرة تكتفي ببعض الأبيات في هذه القصيدة أو تلك أما عند مفدي زكريا فتغدو عقيدة تمتد جذورها في أعماق أعماله الشعرية كمبدأ سياسي ناضل من أجل تحقيقه مند يفاعته حتى آخر لحظات عمره[2]

وبهذا المنظور يرى مفدي المغرب العربي وحدة متكاملة مثله كمثل الطائر الذي لا يطير بجناح واحد .

في المغرب العربي ، عرق نابــض يذكيه في (حرب الخلاص) ضرام

[1] الطاهر يحياوي ، محمد توامي ،شعراء وملامح ، ط1،الجزائر، مطبعة أو مزيان ، 1984 ، ص 85 .

[2] محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ط 2 ، وحدة الرغاية، الجزائر ، 1989 ، ص 82 .

عز العروبة، في حمى استقـــــلالنا أ يطير (مقصوص الجناح) حمام[1]

ــ وهذا الشاعر أحمد سحنون بشاعريته الملهمة يبرز نضال المغرب العربي ضد الاستعمار ويؤكد أن قوة المغرب العربي تكمن في إتحاده وتضامنه في قصيدة بعنوان " المغرب العربي "

للمغرب العربي صوته ضـــــار وثوب مقدام على الأخطـــــــــار

بالحب سوف يعيد سالف مجـــده وبالإتحاد يفوز بالأوطـــــــار

كذب الذين نعوه بل هو لـــم يـــزل غاب الأسود وموطن الثـــــوار

يا ويح الإستعمار كيف تقوضـــت آمالـــه كالهيكـــل المنهـــــــار[2]

د)ــ الاستقلال والحرية :

إن الاستقلال هو مطلب الشعوب العربية من خلال أشكال المقاومة التي قامت بها وقد ترجت بعض هذه الدول باستقلالها ، مثل لبيا مصر والمغرب ، أما الجزائر الجريح فكان الأمر بالنسبة لها مختلفا ، لأن الاستعمار استوطنها وملك البلاد ورقابة العباد ، وهكذا تجاوبت الجزائر مع الشعوب العربية المستقلة وعبرت عن كيانها العربي وعبر عن ذلك العديد من الشعراء الجزائريين أمثال مفدي زكريا ،" فإذا رحنا نتلمس ملامح (الحرية) و(الاستقلال) و(النصر) في الشعر أيام الثورة فإننا نجدها الكلمات السحرية التي تغمر الأبيات بروح القوة المتفائلة والمواقف البطولية في الثورة مع مزيد من الاستماتة و التضحية ، فقد لمس شعره في الانطلاقة الثورية أوسع معاني الحرية ، فالحرية لم تكن تعني غير الفرصة المفروضة للتعبير عن النفس باللسان ، أو القلم ، أو

[1] مفدي زكريا ، المصدر السابق، ص 47 .

[2] صالح خرفي، المرجع السابق، ص 70 .

السلاح و من هنا فلا غرابة أن يتلمس البطل ملامح الحرية حتى في أشد الملامح قتامه وعنفا "[1] فقال :

تلك الجزائر ... تصنع استقلالـــــــها اتخذت له مهج الضحايا مصنعا

طاشت بها الطرقات ما فاختصرت لها بهج المنايا للسيادة مهـــــيعا[2]

ــ فالشهداء لا يموتون من أجل حرية ستأتي ، وإنما هم يعانقون في استشهادهم أقدس مفاهيم الحرية ، ولا يتطلعون إلى استقلال منتظر ، وإنما هم يموتون في بحبوحة الاستقلال ، ولعل الأنفاس الأخيرة في حشرجة الشهيد لا تقل خفقانا وانطلاقا من راية الحرية في عيد الاستقلال[3] يقول مفدي :

نزلنا من معاقلنا صقـــــورا وصلنا في الوغى أسدا غاضبـــــــا

وفي استقلالنا متنا كـــــرام وبلغنـــا الرسالـــة مـــن تغابـــــــى[4]

ــ أما محمد العيد فقد كان إحساسه بمعنى الاستقلال أعمق من إحساس الشعراء الآخرين ، فقد عبر عن ذلك أكثر من مرة ، لأن استقلال أي بلد عربي هو بداية استقلال بلدان أخرى وهذا نموذج قاله محمد العيد عندما استقلت ليبيا منفعلا بهذا الحدث العظيم وعبر عن فرحة الجزائريين[5] قائلا :

أمـــــــل تحقق بعـد نضـــــال ومثال فوز كان خير مثـــــــــال

أرأيت أعظم غبطة من أمـــــة مهضومة حضيت بالاستقـــــــلال

---

[1] المرجع السابق، ص275 .

[2] مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 57 .

[3] صالح خرفي ، المرجع السابق، ص 277 .

[4] مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص40 .

[5] إبراهيم لقان ، المرجع السابق ، ص 100 .

قد يستجد بعبقري طامـــــــح ماضي العزيمة كل شعب بـــــــال

ملك بني عرشا وأسس دولـــــة في ليبيا بجهاده المتوالـــــــــي[1]

3ــ أغراض الشعر الجزائري :

لكل ثورة أو قضية وطنية لها شعراءها الذين يمثلون لسان شعبها ويعبرون عن كل ما يسكن قلوب هذا الشعب من آمال يطمحون إليها وآلام يرغبون في إنهائها ، فيمجدون أبطالهم ويخلدون شهدائهم، ويحثون الشباب على الالتحاق بركب النضال والكفاح ويوقدون العزيمة في أنفس من تقصر طاقتهم عن القتال بتقديم المساعدات بكل طريقة ممكنة للمحاربين أو دويهم ممن يعانون الظلم و الاضطهاد[2]

ومن ثمة فإن هؤلاء الشعراء في خدمة الثورة بأقلامهم وألسنتهم وهذا ما جعلهم يعرفون بشعراء المقاومة ، لأن مقاومتهم بالقلم والكلمة مكملة للمقاومة بالسلاح فكل واحدة مكملة للأخرى فإن نفد السلاح فإن الكلمات الصادقة التي تلج أعماق النفوس وتهز كيانها لن تنفد ولا نهاية لها فهذه الكلمات تسهم في الدعم النفسي الذي يقود للكفاح ، فالشاعر لا يؤثر على أبناء وطنه فحسب بل يتعداه إلى أوطان مجاورة وحتى إلى بلد العدو عبر وسائل الإعلام والنوادي مما يكسب الدولة المزيد من التأييد والمآزرة ، إن هذا الدور الذي يلعبه الشعراء هو ما جعل المستعمر يلجأ إلى الزج بهم وراء قضبان السجون وتحت الإقامات الجبرية إلا أن هذه المعاملة لم تثني من عزيمة الشعراء فكتبوا قصائد تنبض حبا ودفاعا عن وطنهم، واتفقت آراءهم وأهدافهم فتمييز شعراء الجزائر خاصة في فترة الإستعمار ، بكتاباتهم في أغراض مختلفة ، وإن كانت تختلف في درجة استعمالها فذلك راجع لطبيعة نشأتهم الثقافية والأوضاع السائدة آنذاك ، إذ نجد معظم الشعراء تلقوا

[1] محمد العيد آل خليفة ، المصدر السابق ، ص 315 .

[2] ينظر : حسن فتح الباب ، مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة . د ط، سنة 2010، ص 21 .

ثقافتهم في الزوايا والكتاتيب عن أئمة ورجال دين في الجزائر كما نهلوا من جامع الزيتونة والأزهر ما جعل شعرهم يأخذ الصبغة الدينية والأخلاقية " لعل هذا الاتجاه هو الذي يفسر دعوة بعض الشعراء إلى الانصراف عن بعض الأغراض الشعرية ذات الطابع الشخصي أو الاهتمامات الفردية ، كالمدح إذ رأوه تملقا وتمزقا و الرثاء الذي اعتبروه تعدادا ونحيبا و الهجاء فهو في تقديرهم بذاءة و انحطاطا "[1] إن هجرة الشعراء لهذه الأغراض لم تكن لدافع فني أو جمالي إنما استجابة لدافع موضوعي فرضه الواقع الاجتماعي و السياسي و دليل ذلك أن هؤلاء الشعراء لم ينصرفوا عن هذه الأغراض نهائيا بل استخدموا كل ما رأوه في خدمة الوطن و هذا ما جعلهم يقعون في تناقض من أمرهم[2] ومن بين هذه الأغراض التي نظموا وفقها :

أ) **الغزل** : فالغزل في الشعر الجزائري و إن كان ضيق النطاق لا يكاد يشكل اتجاه فذلك يعود إلى عاملين و هما : المأساة الاستعمارية ، و التقاليد الاجتماعية " و انطلاقا من هذين العاملين فإن الشعراء الجزائريين استعاضوا عن الغزل المباشر الذاتي بنوع آخر من الغزل "[3] " ظنوه يحميهم من سلطة المجتمع وإرهاب الاحتلال و هذه الظاهرة توجد في إنتاج الشعراء الذين اتخذوا من حب الوطن أو وصف الطبيعة أومن جرح الموقف السياسي طريقا إلى التنفيس عن أنفسهم "[4] ويقصد بهذه الظاهرة الغزل السياسي ، فقد لجأ الشعراء إلى هذا النوع هروبا من الاضطهاد والاستعمار من جهة و الواقع الاجتماعي من جهة أخرى خاصة وإن المجتمع الجزائري متشدد ومتزمت في مثل هذه الأمور التي تخل بالحياء ، والدين في نظرهم ، فاستعمل الشعراء كل ألفاظ الغزل بما تحمله من معاني الحب ، الحنين إلا أنه بطريقة رمزية تمويهية ظاهرها التغزل بالمرأة والحبيبة ، وباطنها

[1] محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية، ص 74 .

[2] ينظر: المرجع نفسه . ص نفسها .

[3] إبراهيم لقان، المرجع السابق، ص 91 .

[4] سعد الله أبو القاسم، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 76 .

سياسي وهو التغزل بالحرية ، الوطن ، الاستقلال و كثيرا ما نجد هذه الظاهرة عند شاعر الثورة مفدي زكريا فقد عبر عن حبه للجزائر والتضحية في سبيلها بتصويرها امرأة ملكت قلبه فهام بها وأصبح لا يهمه إلا أمرها فيسبغ عليها صفات الحسن و الفتنة والجمال ، و يوغل في وصف نفسه المعذبة وما يلقاه من ألم في سبيل محبوبته ، فيعطي اسما لمحبوبته في مطلع القصيدة مثل : سلوى ، نجوى ، سلمى، إلا أنه سرعان ما يعلن عن هويتها صراحة و خير مثل عن ذلك قصيدة " خفقة فؤاد " حيث يبدأ قصيدته بالحديث عن عشيقته سلمى يصف معاناته في حبها فيقول :

رسول الهدى بلغ سلامي إلى سلـــــمى وعاط حميا ثغرها الباسم الألمـــــى

وناج هواها عل في الغيب رحـــــــمة تدارك هذا القلب أن ينقضي همـــــــا

فكم تحت هذا القلب من لاعج الهوى وكم بين هذا الجسم من أضلع كلمى[1]

ويواصل قصيدته ويعلن عن هوية هذه العشيقة " سلمى " التي تمثل الجزائر :

بلادي بلادي ما ألذ الهوى ومـــا أمر كؤوس الحب ممتزجا سمـــــــــا

بلادي ألا عطف علي بنظـــــــرة حنانيك ما هذا السلو ولا إثمـــــــــا

ومذ فتحت عيني المدامع أبصـــــــرت هواك فلا عار عليها ولا لومـــــــا[2]

وهكذا ظلت قصائده تتميز بالازدواجية بين الغزل الظاهر والمضمون السياسي الباطن ، كما نجد في قصيدته " زنزانة العذاب رقم 73 " يناجي سلواه :

ورب نجوى كدنيا الحب دافئـــــــــة قد نام عليها رقيبي ليس يستـــــرق

[1] مفدي زكريا ، جريدة المغرب ، س1 . ع 11 . 20 أوت 1830 . نقله الشيخ صالح . شعر الثورة عند مفدي زكريا .

[2] المرجع نفسه، ص 66 .

عادت بها الروح من(سلوى) معطـــرة فالسجن من ذكر(سلوى) كله عبــق

سلوى أناديـــــك سلوى مثلهم خــطأ لو أنهم أنصفوا كان اســـم الرمق[1]

فالشاعر هنا إن كان يحب سلوى فذلك لأنها جزائرية فهو يحب الجزائر مثل حب الله :

يا لائمي في هواها إنها قـــــــبس من الجزائر والأمثال تنطـــــبق

بنت الجزائر... أهوى فيك طلـــعتها فكل ما فيك من أوصافها خلـــق

أحبها مثل حب الله أعبـــــــدها آمنت بالله لا كـــــفرا ولا نــزق[2]

" وكذلك تبدو المنحة القومية مجسمة في المأساة العاطفية لمحمد العيد مع ليلاه يوم تساءل في تضرع وتهالك ، أين ليلاي ؟ وجولة الشاعر مع ضالته تبدو جولة مثخنة الجراح سخينة الدم "[3] فيقول :

أين(ليـــــلاي) أيـــــنها حيل بيني وبيـــــــــــــنها

هل قضت دين من قضـــــى في المحبين دينـــــــــــــها

أصلت القلب نـــــــارها وأذاقتـــــــه حينـــــــها

مذ عرفـــــــت ســـرها وتعشقـــــــت زينـــــــها[4]

وقد أحترم الأخذ والرد في مضمون القصيدة فتدخل " ابن باديــس " لحســم النــزاع و التصريح بوجه الحقيقة الذي يعري هذه الرمزية " إن محمد العيد يشعر بشعور الشعب

[1] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 26 .

[2] المصدر نفسه ، ص27 ، 29 .

[3] صالح خرفي ، المرجع السابق، ص 304.

[4] محمد العيد آل خليفة ، ديوان، ص41 .

لا تشغله قوس ولا مروحة ولكن لا تفتنه ــ وهو البلبل الفريد في قفص ــ إلا الحرية فهل يوافق على هذا بعض من ينقصهم شيء من السياسة فليفهموا "[1]

ب) الرثاء:

في ظل البحث عن الحرية و الاستقلال لابد من تضحيات وسقوط شهداء سبيلا لنيل الحرية، واستشهاد أبطال في ميدان الحرب كثيرا ما تثير قرائح الشعراء فيرثون " شهداء قضوا نحبهم ضحية للوطن وثمنا لحريته، لا أناسا عاديين لقوا حتفهم لسبب وآخر" [2]

فالشهيد أحمد زبانا الذي دشنت به مقصلة الاستعمار في سجن بربروس كان له وقع بليغ في مشاعر مفدي زكريا فنظم قصيدة " الذبيح الصاعد " يصف ويصور ذلك البطل فيقول :

يــا زبانا أبلــغ رفــاقــك عنـــــا في السموات قد حفظنا العهـــــودا

و أرو عن ثورة الجزائر للأفـــــ لاك و الكائنات ذكـــــرا مجـــيدا[3]

فالشاعر يوصي الشهيد أن الأمانة ـــ الحرية ـــــ في الحفظ والصون ، فهذا الرثاء كله حماسة و قوة لأنه يتناول موت أبطال لا أناس عاديين فزبانا يسير نحو المقصلة :

شامخا أنفه جلالا وتيـــها رافعا رأسه يناجي الخلـــــــــودا [4]

فالشهيد راض بمصيره مادام في موته حياة سعيدة لشعبه وبلده ولا يخشى لا الجلاد الملثم ولا الحديد والحبال :

اشنقوني فلست أخشى حبـــلا واصلبوني فلست أخشى حـــــديدا

---

[1] صالح خرفي ، المرجع السابق، ص 179 .

[2] يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 253.

[3] مفدي زكريا : اللهب المقدس ، ص19.

[4] المصدر نفسه ، ص 17 .

وامثل سافرا محياك جـــــلا دي ولا تلـــتثم فلست حـــــــــقودا

واقض يا موت فيما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيـــدا

أنا إن مت فالجزائر تحـــــيا حرة مستـــقلة لن تبيـــــــــدا[1]

إلى جانب مفدي زكريا نجد شعراء آخرون يرثون شعراء راحوا ضحية في سبيل الوطن و علماء فقدتهم الساحة الأدبية أو فقدوا حريتهم لأنهم طالبوا بالحق ، كما ندبوا حالة الجزائر تحت وطأة المستعمر أمثال " محمد السعيد الزاهري " في قصيدته "ليتني ما تعلمت حرفا " يبكي مصير الجزائر و مصير المصلح خاصة بعد الانحراف الديني فيقول:

لم أجد في الشقا من هو أشـــــــقى بحياة من عالم محـــــــــروم

لا ، ولا في متاعب الدهر ، صعبا مثل نشر العلوم بين العمـــــوم

بين قوم عمي البصائر ، صـــم ليس فيهم غير الجهول الأثيـم

هو في الجهل كالحمار و لـــكن هو في المكر ، كالمريد الرجـيم[2]

أما محمد العيد آل خليفة فيرثي أحد الأبطال " الأمير خالد " الذي دافع عن القضية الجزائرية في مطلع القرن بالكلمة والقلم وقد مات منفيا فجاءت القصيدة بعنوان "الوداع الوداع "

ما أطول الموت باعـــــــا لم يخش حتى السبـــــــاعا

سطا عليـــــنا بســـــوط من القضـــــــاء فراعـــــا

و أودع الترب نجـــــــما منه اقتبسنا شعاعـــــــــا

[1] المصدر السابق ، ص 18 .

[2] صالح خرفي ، المرجع السابق ، ص45 .

.....

هلم نذكـــــــــــر فنشـــــكر (الخالد) السعي ساعـــــــــــــا

هلم نذكـــــــــــر فنشـــــكر (إقدامـــــه) والدفاعـــــــــــــا[1]

كما يرثيه في أبيات أخرى " في ذمة الله يا خالد " معددا مناقبه وفضله وتقدير الشعب له .

سيذكرك الشعب دهرا مديـــدا فأنت لأبنـــــــائه والـــــــد

و أنت قريبا لهم وبعـــــــــيدا وحيا وميتا ــ لهم قائـــــــــد

نودع فيك زعيما وحـــــــــيدا لنا مجده طارف تالـــــــــــد

خلدت جميل الثناء حميـــــــدا ففي ذمة الله يا خالـــــــــــد[2]

ج) الفخر : أما غرض الفخر فلا يكاد يفرق عن المدح و التمجيد لتقاربهم في الهدف كما أن أغلبها يصطبغ الصبغة الوطنية ، فهذا " محمد الأخضر السائحي " ينظر إلى مدينة قسنطينة بأنها صفحة من التاريخ ، وأنها منطلق العلم خاصة و أنها كانت نقطة انطلاق النهضة الإصلاحية و بعث الثقافة الجزائرية فيقول :

قسنطينة الفيحاء ما أنت بلـــــدة ولكنك المجد القديم المسطـــــــر

سلي عنك في التاريخ عصرا قطـعته وعيشك مخضل الجوانب أخضـــر

و(صالحك)المرهوب في الملك صولة يفيض عليك الصالحات وينشـــــر

بني فيـــك للعليـــاء أجمـــل دولـــــة بها لم تزل هذي الجزائر تفخـــــر

[1] محمد العيد آل خليفة ، الديوان ، ص 419 .

[2] المصدر نفسه، ص 422 .

فأصبحت كالفردوس في الأرض فتنة وحولك جنات وحولـك أنـــــهر [1]

" ووقفة محمد العيد آل خليفة على قسنطينة هي الأخرى وقفة متصفح متمعن ونظرته إليها نظرة مطوحة معرقة في الأبعاد التاريخية ، راجعة منها بالعبرة والذكرى والاعتزاز والنخوة "[2]

فاخر ب(سرتا)حيت سرت بقطرنا واضرب بفطنة أهلها الأمثـــــالا

واذكر أوائلها بني فينيـــــــقيا واذكر بها الرومان والونـــــــدالا

واذكر بها أتراكها وإن اعتـــدوا حالا فقد حرسوا الرعية حـــــالا

واذكر من البايات(أحمد) أنـــــه ذاد العدى عنها وصال وجـــــالا

واذكر فيها من البايات فيها(صالحا) فقد اعتنى وبنى بها فأطـــــــالا[3]

د) الهجاء :

إن غرض الهجاء ظهر بكثرة في العشرينيات و امتد حتى الثلاثينيات وهذا بعد ما عاد معظم الشعراء من دراستهم بجامع الزيتونة وجامع الأزهر وبالتالي ظهور الحركة الإصلاحية فبعد عودتهم وجدوا أن المجتمع الجزائري قد أنحلت أخلاقه مما ساعد المستعمر على تعزيز وطأته وهذا بسبب المدَعين بأنهم رجال دين أو أولياء صالحين "فكان الأولياء يحيطون أنفسهم بقداسة مرهبة للبسطاء من الشعب"[4] ففي هذه الفترة كان الشعب ضعيف الإيمان فاستولت على ذهنه هذه الطوائف بأفكارهم وتحريفهم للدين ومن

[1] صالح خرفي، المرجع السابق ، ص127.

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[3] محمد العيد آل خليفة ، الديوان ، ص 307 .

[4] صالح خرفي ، المرجع السابق، ص 36 .

بين هذه الطوائف " الطرقية " فواجههم الطيب العقبي بهذه القصيدة و هي بمثابة تعرية للمستور من طرف هؤلاء :

فما الطرق في هذا الزمان مجادة ولكنها يبغي بها أهلـها الرزقـــا

تجارة قوم عاجزين ، سبيلـــهم سبيل الضلال جانبوا العلم والصـدقا

وشيخهم الأتقى (الولي) بزعمـه إذا ما رأى مالا ، أمال لـــه عنقا

أولئك عباد الدراهم ، ويلـــهم سيمحقهم الله و أموالـــهم محـقا

متى ألقهم أبصر شياطين فتنـة ويا ليت أني لا أراهـم ولا ألقـى

قد أنشروا بالغي في كل بـــلدة فلم يتركوا غربا ، ولم يتركوا شرقـا[1]

وما يثير غرابة الشعراء هو تقبل الناس لهذا المنطق الغريب و خضوعهم له بل في اعتقادهم أنه الدين الصحيح . يقول محمد السعيد الزاهري :

كانوا طوائف شتى كـــل طائفة تطيع شيخا لها في كل ما زعـمـا

إن قال إني (ولي) صـــدقوه وإن هو ادعى الغيب ، قالوا أحكم الحكما

و إن تعلم بعض الشيء تهجيـــه قليلـة ، هتفـوا يـا أعلـم العلمـا

وإن هو ارتكب الفحشاء فاضـــحة فـلا محـالة معـذور وقـد أثمـا

أو احتسى الخمر قالوا إنها عســل ولا غرابة في هذا ، ولا جـــرما

أو أدعـى خير الخلـق يخدمـــه فما اعتدى عندهم فيها ، ولا ظلـما [2]

[1] الشهاب الأسبوعي : العدد 199 . 27 أكتوبر 1927 نقله صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، ص 41 .

[2] المرجع نفسه، ص 38 .

فالشاعر يهجو و يعاتب هؤلاء المتطرفين على أعمالهم الدنيئة التي تخـــل بالأخـــلاق و الحياء والدين الإسلامي .

ونشير في النهاية إلى أن الشعر الجزائري لا يقتصر على هذه الأغراض فقط فقد ذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لأنها كثيرة و مختلفة منها من برزت في الساحة الأدبية ومنها ما كانت قليلة الظهور و النظم وفقها ، وكما سبق ذكرنا أنها هناك عوامل تتحكم فيها على رأسها سلطة الاستعمار و سلطة المجتمع فيجد الشاعر نفسه محاصرا ما يؤدي به إلى التخفي وراء الرموز والإيحاء بغية إيصال الهدف بالدرجة الأولى والتعبير عن مشاعر النفس بالدرجة الثانية .

1) المبحث الأول :

1ــ التعريف بمفدي زكريا :

هو من خيرة أبناء الجزائر ، وصفوة المخلصين لها ، عقد العزم أن يخوض معركة التحرير ، لا بالرصاص بل بالقلم الجريء والكلمة الثائرة الشجاعة المتقدة حماسة ، وقام بأداء رسالته خير أداء ، فشارك في ذالك بشق طريق التحرير والعزة والكرامة ، هو شاعر الثورة الجزائرية الخصب ، الثائر بطبعه ، الذي لم يتلقى بالمشاركة في إذكاء روح الثورة بقلمه السيال ، وشعره المتقد ، لقد أبدع فأجاد فجاءت أشعاره حية نابضة تثير كوامن الوجدان ، وتحرك سواكن الأشجان قبل أن تجيء وقائع وأحداث ومواقف يتأمل فيها العقل وينظر مدى رجحانها في الميزان ، فجسد بذلك مقولة " أرسطو" الشعر أكثر تعبيرا عن الحقيقة من التاريخ " ، هو رجل خلد الثورة ، وخلد الجزائر ، وخلد نفسه واستطاع بقوة الحق تسجيل اسمه مضيئا يتلألأ على صفحات تاريخ الجزائر " بما صنع لها من فيض عطائه وصدق عواطفه ونضاله ، إنه ولا فخر شاعر الوطن المفدي ، مفدي زكريا[1]

ب ــ حياته : هو مفدي زكريا بن سليمان ، لقبه آل الشيخ أو " آت الشيخ " ولد ببني يزقن ، من قرى وادي ميزاب بالجنوب الجزائري ، سنة 1908، بدأ تعلمه بالكتاب في مسقط رأسه ، في السابعة من عمره انتقل إلى مدينة عنابة حيث يعمل أبوه تاجر ، وفيها واصل دراسته ، وفي سنة 1924 ذهب إلى تونس ضمن بعثة طلابية ، فزاول دراسته بمدرسة السلام ثم بالمدرسة الخلدونية ، ثم بجامع الزيتونة حيث رجع إلى الجزائر في أواخر 1926 .

[1] سليمة كبير، مفدي زكريا ــ شاعر الثورة الجزائرية ــ المكتبة الخضراء للطباعة والنشر، الشراقة، الجزائر ، ص 6.

هذا بالنسبة لنشأته الثقافية ، أما بالنسبة لنشأته الوطنية والسياسية فقد كانت أيضا بتونس في هذه الفترة بالذات ، إذ هيأ لمفدي زكريا جو البعثة العلمية أن يحتك بشخصيات معروفة باتجاهها الوطني ، أمثال أبي اليقظان رئيس البعثة ، وأبي إسحاق أطفيش ، وعمه الشيخ صالح بن يحيى الذي يعد من المؤسسين الأوائل للحزب الحر الدستوري التونسي[1].

وهكذا تضافرت آثار كل من البيئة الضيقة التي كان يحيا فيها مفدي و المتمثلة في مسؤولي البعثة، والبيئة الواسعة المتمثلة في النشاط السياسي الوطني الذي كانت تعيشه تونس أنذالك ، فتضافرت كل هذه الآثار في توجيه مفدي زكريا وجهة وطنية صحيحة ، وجعلته ينظر إلى مستقبل الجزائر والوطن العربي من خلال سبيل واحد هو التحرر الكامل ورحيل الاستعمار نابذا عن فكرة كل الحلول أوسطية التي تسعى إلى تحسين الظروف في ظل الاستعمار, مهما يكن شكل ذلك الاستعمار ومهما يكن حظ الإسلام والعربية مزدهرا في ظله فلا قيمة لأي ازدهار ما لم يحصل التحرر النهائي[2] .

ج) ــ **شخصيته** : إن شخصية مفدي، كما يحكي عنه أصدقائه الحميمون ــ تمتاز بالتفتح والبساطة وعدم الانطواء والتعقد ، فقد كان دمث الأخلاق ، سمح الطبع ، لطيف المعشر ، كثير الميلان إلى التنكيت والدعاية ، دائم التبسم ، لا تفارق البسمة محياه في أحلك الظروف ،سريع الانسجام بالآخرين ، بحيث يخيل للذي يتعرف عليه أول مرة ويحادثه في أول لقاء أنه يعرفه مند أمد طويل ، ومن جهة أخرى كان معتدا بشخصيته في غير صلف ولا كبرياء يتشبث بآرائه ومواقفه يحب دائما أن يكون سيد موقفه واختياراته ، شديد الصراحة والجهر بآرائه التي يؤمن بها , مما عرضه لكثير من المشكلات والمضايقات .

لقد كانت تراوده أمنيتان في حياته:

[1] يحيى الشيخ صالح ، شعر الثورة عند مفدي زكريا ، ص 39.

[2] المرجع نفسه ، ص 40.

أولا : أن يجمع شعره الذي قاله مند بداية رحلته الشعرية في العشرينيات إلى سنة 1954 لأنه موزع بين جرائد ومجلات مختلفة ، وقد صعب تحقيق هذا على الشاعر نوعا ما.
ثانيا : أن يكتب مذكرات حياته، خاصة السياسية والنضالية منها ، مند إلتحاقه بحزب نجم شمال إفريقيا في الثلاثينيات وهو يعتقد أنها ستكون مهمة ثرية و مثيرة أيضا ، لأنه عايش جميع أحداث الحركة الوطنية مند نشأتها وكان من بين أهم أقطابها .

ولكن من المؤسف أن مفدي زكريا لم يكتب له تحقيق أية أمنية من الأمنيتين وإن كان جمع شعره بمستطاع الآخرين أن يقوموا به بعد موته[1] .

ح ــ العوامل المؤثرة في نجاحه كشاعر :

ــلقد دخلت أشعار مفدي زكريا التاريخ من أوسع أبوابه ، وخلدت الجزائر في جميع مراحلها التاريخية القديمة منها والحديثة واشتهرت إلى درجة أصبحت فيها كنار على علم كما يقال ، ذلك لأن مبدئها قائم على شاعر لا يجود الزمان بمثله مرتين ، و ما اجتمع له من الشروط والعوامل والخصائص ، لم يجتمع لغيره من الشعراء ومن تلك العوامل :

1ــ الشاعرية : فقد منح الله جل وعلا موهبة فذة في الشعر ، بعيدة عن التصنع والأداء صقلتها الحنكة وهذبتها الممارسة الطويلة ، حتى أصبحت تجمع بين رقة القوة وقوة الرقة.

2 ــ التجربة : فقد كابد الشاعر الهم و عاناه ، بحواسه وجسده ، في سجون الإستعمار كوطني مناضل قبل أن يعاني مأساة شعبه ، بحسه وخياله وشعوره ، فجاءت صورته الشعرية موسومة بسمة الواقعية وصدق في التعبير .

3ــ **الثقافة:** إذ جمع إلى جانب سعة الثقافة ، ذكاءا وقادا في تحسين توظيف الكلمات والأساليب، وقدرة عجيبة على اختراق الظواهر والأشكال إلى البواطن والأعماق فالتاريخ

[1] المرجع السابق ، ص 49 .

عنده وعي وحس وحضور، فهو يلتفت إلى ما وراء الأحداث والأسماء و الأرقام ليستخلص مواطن القوة والعظمة ، ويستشف معاني الجمال وأسرار الحكمة .

4 ــ **البعد الديني:** فالمطلع على إنتاج مؤلفات شاعرنا ، يلمس تلك الروح والعاطفة الدينية التي تسري في شعره ، لتأثره الشديد بالقصص القرآني وبالتاريخ الإسلامي عموما ، ولا غرابة في ذلك ، إذ أنه من بيئة صحراوية ، سكانها يعرفون بالوعي والتقوى والتدين الشديد وكمثال عن ذلك نجده يقول :

نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت نوفمبرــ مطلع ــ فجر

وذكرتنا في الجزائر بـــــدرا فقمنا نضاهي صحابة بـــــدر

وبالفعل نجد أنه كما أذنت معركة بر بتولي ليل الشرك وبزوغ فجر الإيمان والإسلام ،فقد أذنت ثورة الجزائر بتولي عهود الاستعمار والذل والهوان ، وبزوغ حياة العزة والكرامة[1] .

د ــ أهم أعمال الشاعر :

إن أعمال الشاعر مفدي زكريا كثيرة نذكر منها:

ــ ديوان اللهب المقدس : يعد من أهم وأشهر دواوينه ، باعتباره ديوان الثورة الجزائرية فمن وحيها صاغ مفدي زكريا الأناشيد والقصائد التي تضمنها ، وهو يحظى بمكانة خاصة في الشعر الجزائري الحديث ، مما جعله موضعا لفخار المثقفين الجزائريين عامة والأدباء والنقاد خاصة ، فأقبلوا عليه حفظا ودراسة ، كما ترجمت بعض قصائده إلى اللغة الفرنسية .

[1] سليمة كبير، مفدي زكريا ــ شاعر الثورة الجزائرية ، ص 12 .

ويضم الديوان أربعة وخمسون (54) قصيدة ، يضم عدة قصائد كتبها وراء قضبان السجن ونجد قصائد نظمها مفدي وحفظها في الزنزانة لاستحالة كتابتها في أعماق السجن وظلماته ، ويفتتح الديوان بقصيدة " الذبيح الصاعد " التي نظمها الشاعر رثاء عند إعدام أول شهيد بالمقصلة " أحمد زبانا " فكتبها بمعان سامية وشعور صادق وقوي .

طبع اللهب المقدس ثلاث طبعات الأولى سنة 1961 بالمكتب التجاري بيروت، والثانية ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر سنة 1973 أما الثالثة فكانت في الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

ــ ديوان تحت ضلال الزيتون طبع سنة 1965 بالمطبعة الرسمية بتونس .

ــ إلياذة الجزائر طبعة سنة 1972 ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر ، وكانت هذه الطبعة تحتوي ستة مائة بيت فقط ثم نشرت كاملة في المجلد الأول من محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة 1972[1]

ــ تعتبر الإلياذة من أهم وأروع أعمال الشاعر فقد كانت إلياذة الجزائر ولا زالت تحتل الصدارة بين الأعمال الشعرية والتاريخية في الجزائر ، وكان يصفها مولود قاسم نايت بالقاسم بأنها " أحسن سجل لتاريخ الجزائري حتى اليوم ، أي أحسن كتاب فيه وعنه وحتى وإذا ما كتب هذا التاريخ يوما بصفة كاملة شاملة فستبقى إلياذة الجزائر أروع تاريخ للجزائر وأكثر وقعا في النفوس ، و أسهله على الحفظ وعلى التذكر والاستشهاد في معرض الاستشهاد"

وقد سميت بإلياذة الجزائر تشبيها بإلياذة هوميروس ، ولكن في الحقيقة أنها أعظم وأروع فبينما تروي الإلياذة اليونانية أساطير وحكايات ، فنجد الإلياذة الجزائرية تخلد أمجاد

[1] يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق، ص43 .

حقيقية لوطننا ،وتصور وقائع وأحداث هي من بطولات أباء الوطن في ساحات الوغى[1]

ــ ديوان " من وحي الأطلس " طبع بالمغرب الأقصى سنة 1976 حيث يحتوي هذا الديوان على قصائد من شعر الوطنية .

ــ ديوان " الخافق المعذب "

ــ تاريخ الصحافة في الجزائر .

بالإضافة إلى قصائد متفرقة في جرائد ومجلات لو تجمع بعد .

هــ ــ شهادات وذكريات في حق الشاعر :

أ ــ شهادة الأستاذ الفنان الأمين بشيشي : يعتبر الأمين بشيشي أحد الوجوه المرموقة في المشهد الثقافي والفني ببلادنا ، بحضوره المتميز في مختلف الفعاليات وبنشاطاته المتواصلة طيلة أكثر من أربعين سنة عبر عدة مرافئ ومحطات إعلامية ، وقبل هذا وذاك هو فنان مشهود له في فضاء الموسيقى ، فهو عضو بالمجمع العربي للموسيقى بالقاهرة ، وتركزت جهوده على تلحين أغاني الأطفال والأناشيد الوطنية .

ويكن الأستاذ الأمين بشيشي تقديره البالغ لشاعرنا مفدي زكريا ففي سؤال طرح عليه عن رأيه في الشاعر مفدي زكريا : ماذا بقي لك من حديث الذكريات عن لقائك ومعرفتك بشاعر الوطنية والنضال والثورة ؟

فجاءت الإجابة طوعية من أستاذنا الأمين بشيشي عن طريق استرجاع شريط الذكريات : لم أتشرف بالتعرف على شخصية مفدي زكريا قبل ذلك إلا أنني كنت أعرفه مثل جل أقراني وأبناء جيلي من خلال نشيده الخالد الذي مطلعه :

[1] سليمة كبير، المرجع السابق، ص 25.

فداء الجزائر روحي ومالي ألا في سبيل الحريـــــة

لقد كنت أنتظر بلهفة أنتاجه ليس فقط بصفتي سكرتير تحرير المجاهد، وإنما أيضا بإحساس أناني أني سأستمتع قبل غيري بشعر بدر مفدي .

وبالرجوع إلى مجموعة" المجاهد " (النسخة العربية) يدرك المتصفح مدى سحر البيان في القصائد العصماء التي كانت تسيل فيضا رقراقا شاحذا للهمم ، مما استحق به عن جدارة لقب " شاعر الثورة. "[1]

ب ــ شهادة الباحث المناضل محمد قنانش : محمد قنانش من مواليد 25 فبراير 1915 بمدينة تلمسان اندمج في أربعة جمعيات ثقافية سياسية تابعة للحركة الوطنية كانت بداية كتابته سنة 1936 حيث نشر في نفس السنة أول مقال له بجريدة " النهضة التوذهية" تلخص رأيه في الشاعر مفدي زكريا من خلال إجابته على سؤال طرح عليه :

ــ مند متى تعرفت على الشاعر والمناضل مفدي زكريا ؟

ــ من خلال كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر للأستاذ محمد الهادي السنوسي تعرفت على شاعرنا مفدي زكريا وما أنتجته قرائح شعرائنا قبل الثلاثينيات وحفظت وقتئذ الكثير من قصائد مفدي وكان بي شوق لأتعرف عليه من قريب .

ــ أما الكلمة التي أطلقها كالقنبلة فهي الثورة كوسيلة للتنفيذ وهي كلمة كانت بالنسبة لي ولأغلبية الحاضرين شيئا جديدا ، لم تكن كلمة الثورة لتذكر إلا في كتب التاريخ أو كحلم لبعض الشعراء والفلاسفة .

[1] بالقاسم بن عبد الله ، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة ، ص 52 – 58.

من يومها بدأت أقترب من الشاعر والمناضل مفدي زكريا الذي برز بقيمته الأدبية ومواقفه الثورية في إطار جمعية طلبة شمال إفريقيا لتأييد فكرة الاستقلال ودخل المعركة بكل قواه وأصبح بحق شاعر الحركة الاستقلالية .[1]

المبحث الثاني :

ــ مفهوم لغة القوة :

أ) مفهوم القوة:

إن " القوة " في معناها اللغوي كما جاء على لسان الزمخشري " قوة من قوي وهو قوي ،مقوٍ ، وهو قوي الأصحاب والإبل ، وقوى على الأمر وقواه الله وتقوى فلان وهو شديد القوى والقوة ".[2]

و كما جاء في القاموس المحيط "القوة ، بالضم : ضد الضعف، قوى بالضم والكسر،كالقواية ، قوي ، كرخي ، فهو قوي وتقوى واقتوى، وقواه الله وهو قوي : يرمي بذلك،

وفرس مقر ، وفلان قوي مقوي ، أي قوي في نفسه ودابته[3]

ــ وكما جاء في قاموس المنجد: " ج[2] قوًى وقِوى طاقة وقدرة ذاتية سياسية أو صناعية أو حربية، قوى: كان ذا عمل وطاقة على العمل مثل صار قويا وازداد صلاحية وشدة وثباتا أي صار قويا على التفكير.[4]

[1] المرجع السابق ، ص 65 ــ 66 .

[2] أحمد الزمخشري ، أسس البلاغة ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج2 ، 1997 ، ص 112 .

[3] الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ص 1050 .

[4] أنطوان نعمة وآخرون ، المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، ط2 ، دار المشرق، بيروت، لبنان ، 2001 ، ص 1201.

ب) قوة اللغة:

إن في حديثنا عن مفهوم لغة القوة يعترضنا التباس واضح في معنى هذا المفهوم بين من يعتقد أن مفهومه متعلق بقوة اللغة العربية ، هذه اللغة التي استمدت سموها ورفعتها من قدسية القرآن الكريم الذي نزل بها بيانا مبينا أخيرا للبشرية جمعاء ، كما استمدت قوتها ومكانتها من مكانة أهلها وما قدموه من منجزات عبر تاريخ الإنسانية الطويل " فاللغة العربية لا تمتلك خصوبتها ، وثراءها وقدراتها على تلبية حاجات أهلها ومستجدات العصر الذي يعيشون فيه و تحولاته ومتغيراته وتحدياته في ذاتها فحسب ، إذ نهضت في الماضي لمتطلبات الحضارة والثقافة مستندة إلى ما كان عليه أهلها على مسرح الحياة ، ودورهم في حركة الإنسان على الأرض ولهذا لا يجوز التداول في شؤون اللغة بمعزل عن شؤون أهلها، وموقفهم من لغتهم بوصفها معقلا من معاقل الدفاع عن الهوية والوطنية والقومية ".[1]

وهنا يتضح بأن اللغة العربية استمدت قوتها أساسا من قوة أهلها ، فلطالما كان العرب أفصح الناس وأقواهم لغة وأحسنهم تعبيرا من العصر الجاهلي القديم .

وقد تحدث ابن خلدون عن قوة اللغة فقال " إن قوة اللغة في أمة ما تعني استمرارية هذه الأمة بأخذ دورها بين بقية الأمم ، لأن اللغة بغلبة أهلها ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم"، كما يعتبر اللفظ العربي ــ بخلاف الألفاظ ــ معجزا إذ يعبر بحروفه وطريقة نطقه على أدق التفاصيل، بما فيها المشاعر الإنسانية مما يجعلك متوحدا مع الكون في تناغم فريد ، فقوة اللغة من قوة الحضارة التي تمتلك تلك اللغة[2] .

[1] هادي نهر : اللغة العربية وتحديات العولمة ، عالم الكتب الحديث ، الأربدة ، الأردن ، ط1 ، 2010 ، ص 1

[2] www.Sood net . ovzbic : مقال لابن جعفر الغامدي : الهوية والقيم ... موت اللغة العربية ــ نموذجا .2013/2/26. 21:30.

وإذا أردت أن سائر اللغات يبين إبانة اللغة العربية، فهذا غلط لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لم أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة [1] .

كما يتميز اللفظ العربي ــ بخلاف الألفاظ الأخرى ، بقوته وجزالته وهذا ما نلخصه في الشعر الجاهلي عند أغلبية شعراء هذا العصر أمثال لبيد بن ربيعة ، و امرؤ القيس ، فشعرهم يمتاز بجزالة وقوة ألفاظه المنقاة كما أن عباراتهم تنتظم فيها الألفاظ في تماسك ملحوظ مما يجعل الأسلوب قويا ومتينا ، وبما أن الشاعر يطلب شرف المعنى فإن الأسلوب يلبي مطلب المعاني ، فتعرض في معارض محبوكة بكل عناية وتنقل تلك المعارض الإعجاب إلى المتلقي بأمانة وصدق ، وإذا كان المتلقي ممن يعجب لقوة اللفظ وجزالته ، فإنه يرتاح إلى الاستماع لشعر لبيد والفرزدق ، فإذا استعرضنا شعر الفرزدق نجده شعر يسير على طريقة لبيد في قوة اللغة وجزالة الألفاظ .

ومائرة الأعضاء كأنما عليها من الأين الجساد المدوف[2]

ــ كما نستشهد بأبيات من قصيدة لإسماعيل بن أبي بكر المقري على قوة اللغة العربية ، هذه الأبيات عندما تقرأ من اليمين تكون مدحا وعند قراءتها من اليسار تكون ذما:

طلبوا الذي نالوا فما حرمـــوا رفعت فما حطت لهم رتبوا

وهبــوا ومــا تمت لهــم خلــق سلموا فما أودى بهم عطب

جلبوا الذي نرضى فما كســدوا حمرت لهم شيم فا كسبــوا

[1] أحمد بن فارس زكريا : الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان، ص 19 .

[2] . www. Aljazirah. Com /. ./ar1 ht : مقال لعبد العزيز بن محمد الفيصل (جزالة لبيد تعجب الفرزدق) 25 ــ 02 ــ 2013 ، 08 : 7 سا

و بالتالي فإن قوة اللغة العربية هي انتصار للوجود العربي وللأمة العربية ، لأن أي إنسان لا يمكن أن يبدع لوطنه شيئا إلا إذا أحب هذا الوطن حبا صادقا عميقا ولا يمكن التعبير عن هذا الحب إلا باللغة التي نبتت على أديم الوطن .

ج) لغة القوة:

ولكن ما نحن بصدد البحث عن معناه هو لغة القوة ، وهي تلك اللغة التي تسارع نبضها في الشعر الجزائري فحركت أوتار الثورة ، وعزفت لحن المقاومة ، واخترق سهمها نفوس المستعمرين فسقطت كشظايا جمر ملتهبة أحرقت غرور ذلك المستعمر ، إنها اللغة التي أقرت بأن ما يؤخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ، فاتخذت أسلوبا وألفاظا لا تعترف إلا بلغة السلاح والنار لمخاطبة المستعمر الذي بات يطبق على الشخصية الوطنية " فالبيان كل البيان في لغة القنابل ، هذه اللغة الفصيحة التي سيسمعها من في أذنيه وقر ، و لوافح النيران خير ما يرفع اللوائح لمن في عينيه ركام وروائح البارود أقوى العطور وأعبقها في مسك يشمها من سد الزكام منخريه ، والحلق عندما ينطق معه الرشاش فإن الوجوه تغنوا لها والأصنام تخر صرعى ، ويصنع العتاة المتكبرين "[1]

فما فائدة الكلمة الفنية إذ لم تكن صوتا مسموعا في مضمار المقاومة ، وأصداء متجاوبة في تجسيد ما يعانيه الشعب ، وما هدف النص الشعري الذي ترعرع في أحضان الثورة ولم تنبعث منه نفخة تتنفس هواء المقاومة ، وما هدف الشاعر إذا لم يكن لسان حال قومه وشعبه ولم يكن قلمه وسيلة لفضح النوايا الاستعمارية وإفساد خططها ومشاريعها .

كما قال الزاهري " إن الشعر هو الشعور، وأبناء الجزائر يشعرون جميعا بهذه الآلام فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين ! أشعر بمجد الجزائر القديمة، وأشعر بعد ذلك بما

[1] يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 93 .

صارت إليه هذه الأمة من البؤس الأليم فينفطر قلبي انفطارا، ويغلي قلبي هموما وأحزانا ، فأتنفس الصعداء، أروح بين جوانحي وأنفث من صدر موتور وقلب محزون "[1].

ــ ورغم أن هناك العديد من الشعراء الجزائريين الذين لفتهم موجة من التشاؤم و القتامة و التذمر والشكوى ، وغلبت على لغة أقلامهم رهبة الضعف واليأس ، وخنق الخوف أصداء أصواتهم ، فبين دوي الرصاص وصمت القوافي نرى بأن الكثير من هؤلاء الشعراء الذين سبقوا ميلاد الثورة ، ركنوا في عهدها إلى ما يشبه الصمت المطبق ، فاستقبلوها بالهدوء المنتظر المتوقع وكمون الموقد للفتيلة يترقبون انفجارها ، فسكت محمد العيد الذي لم يحمل ديوانه الضخم غير قصيدتين يرجع تاريخها إلى عهد الثورة وهما :

(مناجاة بين أسير و بني البشر) و (أبا المنقوش) ، وسكت أحمد سحنون الذي كان في الأربعينيات يتلمس وهج الثورة بأطراف أصابعه ويستنفر الشعب بشعر يكاد يصعد في السماء ــ وسكت الأخضر السائحي حتى طالعنا بأول ديوان له بعد الإستقلال 'و شعراء آخرون خنقت أصواتهم الداوية رصاصات الجلاد ومقاصله ، فكسا شعرهم ركب الصمت والسكوت[2] إلا أن وفي الوقت نفسه يوجد شعراء آخرون اتخذوا رنة البارود وزنا وعزفوا نغمة الرشاش لحنا ، ورفعوا صرخة الأوطان عاليا بأصداء أقلامهم ونبرة كلامهم المملوءة بالرعشة الصارخة ، إنهم هؤلاء الشعراء الثائرين الذين أسلموا الراية لحمل السلاح ، إنهم الشعراء الذين اعتزوا بإخلاء الميدان للغة الرصاص ، وأقروا بأن الشعر العي قد استحى من السلاح المفصح المبين وهاهو مفدي زكريا بعث بقصيدة من أعماق بربروس بعنوان "وتعطلت لغة الكلام" وهو لا يبيح لنفسه القول ولا يرفع صوته إلا ليبايع معجزة السلاح فيقول :

[1] صالح خرفي، المرجع السابق ، ص 18 .

[2] المرجع نفسه، ص 224 .

نطق الرصاص ، فلا يباح كلام وجرى القصاص فما يتاح ملام

ويطل مفدي على الثورة الجزائرية إطلالة أبي تمام على فتح عمورية :

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإ بهـــــام

والنار أصدق حجة ، فا كتب بها ما شئت ، تصعق عندها الأحلام

إن الصحائف للصفائح أمــرها والحبر حرب والكلام كـــلام [1]

ــ وينفض (مفدي) يده من الحبر والورق ، كأنه ليس بالشاعر الأديب ، أنه يرى في دم الأحرار الحروف التي تمحى ، والأصداء التي تخترق الصمم :

حقوقنا بدم الأحرار نكتبها لا حبر أصبح يعنيها ولا ورق [2]

ــ كما نراه يصبغ الألوهية على الرشاش ويقدس لغة النار ويسجد لها سجدة العبودية والإجلال :

وتكلم الرشاش جل جلاله فاهتزت الدنيا وضج النيـــــر

وتنزلت آياته لهابـــة لواحة ، أصغى لها المستهتـــر [3]

ــ وربما قد استمد الشعراء الجزائريون هذا الموقف الصامد من الحقيقة التاريخية التي صدعت بها الثورة الجزائرية ، فقد طغى عليها في سنينها الأولى رفض عنيد لكل تلويح بالتفاوض أو مساومة لتوريق الصفحة المطوية فكأنها تريد أن تشفي غليل الانتقام من سياسة الخداع أولا ثم تفرض نفسها على العدو قادرة مقتدرة ، غير مهزوزة بمواقف موتورة .

[1] مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 42.

[2] المصدر نفسه، ص30.

[3] المصدر نفسه ، ص 116.

ولا شك بأن هذا الموقف العنيد للشعراء الجزائريين قد استمد قوته أساسا من ذوي الرصاص الممزوج بزغاريد النساء المدوية في الفضاء ، ومن أصوات الأجساد التي تنفضت أرواحها في شوارع الجزائر ، فأي حالة ستعتري الشعر في مثل هذه المواقف التي تختلط فيها بسمة النصر حينا بدمعة الشهيد أحيانا إلا أن يكون صرخة مدوية يعلو صداها من كل كيان جزائري لا يعترف بلغة سوى لغـــة القوة التي تعني (لغة السلاح) و (لغة الرصاص) و(لغة النار) و (لغة الدم) و(لغة الرشاش).

المبحث الثالث :

لغة القوة في شعر مفدي زكريا :

مند دخول الاستعمار إلى الجزائر الذي كانت أسبابه مفتعلة أهمها حادثة المروحة ، لم يهدأ للجزائريين بال في مقاومته بدافع حب الوطن والانتصار للدين و حفظ العرض والشرف فقاموا بالعديد من المقاومات في مختلف ربوع الوطن وأخدت هذه المقاومات تتوسع وتقف بالمرصاد في وجه المستعمر وكانت تتميز بالنفس الطويل، لكن هذه المقاومات كانت متفرقة ودون تسيير محكم ما جعلها تفشل ، وإن لم تحقق الهدف المنشود وهو الإستقلال فإنها أثبتت الرفض التام لأشكال الذل و الإهانة ، ما جعل الشعب يلجأ إلى المقاومة السياسية بأشكالها من أحزاب وجمعيات وصحافة واستمرت هذه السياسة في عملها بين أحزاب تطالب بالاستقلال و الحرية الكاملة وأخرى قابلة بالإدماج والمساواة مع الفرنسيين ، وقد أثارت هذه الفكرة الأخيرة الغيورين على الوطن و رفضوا الرفض التام لهذا الإدماج والمساواة ومن بين الرافضين لهذا المبدأ العلامة عبد الحميد بن باديس حيث رد على هؤلاء بقوله :

شعب الجزائر مسلـــم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجا لـــــــه رام المحال من الطلب

لكن هذه المقاومة السياسية هي الأخرى لم تصل إلى المنشود واسترجاع المفقود وبهذا كان الشعب قد تعلم من هذه التجارب السابقة وتعلم وأدرك أن يكون تحت شعار واحد لا اختلاف في المقاومات ولا تباين في الآراء ، ولما جاءت مجازر الثامن من ماي سنة 1945 كشفت الوجه الحقيقي للاستعمار الذي طالما أخفى وجهه وراء المعاهدات التي كانت مجرد حبر على ورق مما جعل المقاومة السياسية تتراجع فحلت محلها القوة المسلحة والعمل بأن ما أخد بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ، فأعلن عن ميلاد الثورة في غرة نوفمبر سنة 1954 هذه الثورة جاءت مؤمنة بقوة السلاح هذا السلاح الذي يحفظ كرامة الشعب الجزائري ويمكنه من الحياة الشريفة هذا الموقف الذي وقفته الجزائر الموحدة من الاستعمار الغاشم العنيد وهي اللغة القوية التي اختارها الشعب لتحرير بلده من العبودية والظلم والجبروت ، لهذه اللغة القوية التي انفرد بها مفدي زكريا في شعره واستعمل كلماته للدعوة باستعمال القوة والعنف ضد الظالم المتغطرس ، فهو لا يؤمن إلا بالأسباب القوية التي تنطق بالنار والرصاص لتحرير البلاد والعباد يقول :

وإذا السياسة لم تفوض أمرها للنار كانت خدعة وتصنعـــــا

إني رأيت الكون يسجد خاشعا للحق والرشاش إن نطقا معا [1]

هذا هو موقف مفدي زكريا إذ يعتبر النار والسلاح هو الوسيلة الوحيدة للتحرير لا بديل عنها ، كما كتب قصيدة بعنوان ليلة القدر الكبرى بمناسبة اندلاع الثورة في أول ليلة من شهر نوفمبر ، " يتحدث فيها عن هذه الليلة الخالدة التي دعاها التاريخ فاستجابت له ، كما استجابت لنداء الشعب ، فهي بحق ليلة القدر الكبرى ، فقد سطع فيها نجم الحـــرية ، و انكشف فيها الحجاب ، وتجلى الليل فيها ضاحك القسمات ، وأشرقت كواكبه مضيئة

[1] مفدي زكريا، المصدر السابق ، ص 57 .

ملتهبة كالقنابل التي اندلعت في هذا الليل ، لقد أشعل فتية الجزائر نار الثورة .... ليحرروا وطنهم فيقول :

دعا التاريخ ليلك فاستجابـــــا نوفمبر هل وفيت لنا النصابـا

وهل سمع المجيب نداء الشعب فكانت ليلة القدر الجوابـــــا

تبارك ليلك الميمون نجمـــــا وجل جلاله هتك الحجابـــــا

زكت وثبانه عن ألف شهـــــر قضاها فيك يلتحق السرابـــا

تجلى ضاحك القسمات تحكـــي كواكبه قنابلـــــــه لهابـــــا [1]

كما رفض الشاعر لغة الخطب و الحوارات التي تعقد لأن فرنسا أصبحت تعقد ندوات الحرب باسم السلم :

وتعقد باسم السلم للحرب ندوة يصرفها السمسار(بالعملة الصفرا) [2]

ودخل الاستعمار الجزائر رغما عن شعبها وبالسلاح والنار ولم يخرج إلا بالقوة والسلاح فيقول مفدي زكريا :

وإذا الجزائر بالسلاح استعبدت فمصيرها بسلاحها يتقرر[3]

و إن كانت فرنسا تتداعى الصمم و العمى عن شعارات و أصوات الشعب فإن الثورة تملك وسائل إجرائية لا زالت هذه العاهات وتتمثل هذه الوسائل في السلاح والرصاص لأنه لغة فصيحة تسمع من به صمم و يشتم رائحته من به زكام فيقول مفدي زكريا :

[1] مفدي زكريا، المصدر السابق،ص33 .

[2] أحمد رحماني، لغة القوة في شعر مفدي زكريا ، ص18 .

[3] مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 119 .

لغة القنابل في البيان فصيحة وضعت لمن في مسمعيه صمـــــام

(لوافح) النيران خير(لوائح) رفعت ،لمن في ناظريه ركـــــام

و(روائح) البارود مسك نوافح سجرت ،لمن في منخريه زكـــام [1]

هذا ما قال الشاعر بعد ما عرضت القضية الجزائرية في المنظمة الدولية ولم تقبل القضية ما جعل الشاعر يستفز من خدع الكلمات و الحروف ، فينادي ، بالنار و السلاح ويدعوا إلى إفساح المجال للسيف يتحدث لأنه أصدق لغة و النار أصدق دليل :

السيف، أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بيانها ،الإبهـــــام

و النار، أصدق حجة، فاكتب بها ما شئت، تصعق عندها الاحلام[2]

فالشاعر إذ يرفض الندوات و المجالس والمناقشات إنما يرفضها لأنه لا يريد من الجزائر أن تأخذ حريتها بالمساومة لأن هذه المساومة تفقدها شرفها وسيادتها و من غير الممكن أن يبيع شعب كرامته وشرفه ، هيهات للشعب الجزائري أن يكون كذلك لأنه يريد أن يسجل اسمه في التاريخ نقيا كريما فهو متوكل على الله في كفاحه وجهاده:

متى استقلت بلاد، في مساومة تباع في سوقها، الأفكار والذمم [3]

فالوعود أصبحت كاذبة و الاتفاقيات مفتعلة و كل ما تأتي به فرنسا أصبح خرافة لا يقاس عليها ، فعلى الشعب أن يسترجع حقه بالقوة ويكتبه بدم الأحرار الذين لا يؤمنون بالكذب والخيانة ولا الكتابة على الورق :

[1] المصدر السابق، ص 42 .

[2] المصدر نفسه: ص 41 ،42 .

[3] أحمد رحماني، المرجع السابق، ص 19.

حقوقنا، بدم الأحرار نكتبها لا الحبر، أصبح يعنينا، ولا الورق[1]

يري الشاعر أنه وفدا قادر على النيابة عن الجمعيات و الاجتماعات فما هي هذه الوفود ؟ هو لا يعتمد على الوفود السياسية و رجال الورق بل هو وفود لا تتراجع إن بدأت ، إنها وفود الرصاص لأن الرصاص هو ممثل الشعب ، و هي القنابل التي توقض المتعامين عن حقوق الشعب وتزيل الستار لمن أسدله على الحق و استعمله لإخفاء وجه الحرية والحق فيقول الشاعر :

و أوفدت الرصاص، ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحسابا

فأيقضت القنابل من تعـــامى و أسدل فوق ناظره نقابا[2]

" و لعل أحسن ما يبرر فلسفة مفدي زكريا في القوة والإرغام و نزع الحقوق نزعا وقفته من الرشاش ، فهو يقف أمامه بخشوع ، رافعا إياه إلى مرتبة الإله الذي يعبده .

فالرشاش تكلم جل جلاله فتنزلت آياته لها به لواحة إهتزت لهه الدنيا ، وضج القيـــد ، و أصغى إليها الذين يمتهنون و يحتقرون الضعفاء .

وتكلم الرصاص جل جلاله فاهتزت الدنيا، وضج النير

وتنزلت آياته لهـــابـــة لواحة ،أصغي لها المستهتر[3]

فالرشاش هو رمز من رموز القوة عند مفدي زكريا و به تعلن الشعوب المستعمرة عن وجودها فالشاعر لا تجد معنى له في الحياة إلا في الرشاش ضد تكالب الاستعمار.

ويعلن بالرشاش ،حق وجوده ويرفع للتحرير، مليـــون قربان

[1] المرجع السابق ، ص 19 .

[2] المرجع نفسه ، ص 19 .

[3] مفدي زكريا،المصدر السابق ،ص116.

تصوم به الآلاف ،عن أكل لقمة بقدمها ــ مسمومة ــ كف سجان [1]

هذا الموقف الذي تميز به مفدي زكريا وانفرد به ، وإن كان معظم الشعراء سلكوا هذا الطريق إلا أنهم لم يكونوا على نفس الدرجة .

إن موقف مفدي زكريا لا يعني رفضه للكلمة و هو الشاعر الذي يؤمن بخطورة الكلمة و الشعر في هذه المرحلة ولا يلغي الشعر والخطاب كلية و إنما يرى انه يجب الاعتماد عليه فقط لأن السبيل الوحيد لبلوغ الهدف ــ الاستقلال ــ هو القوة .

أنا ابن الجزائر... من أمة على دمها ،تصعد الرابية

على ذوب أكبادها، ترتقي وفوق جماجمها ،ماضية

غدوت ،لثورتها، شاعرا من النار والنور، ألحانية [2]

و نظرا لدور السلاح في مثل هذه الظروف فإن الشاعر يفضل ألا نتكلم إذا نطق السلاح حتى نصغي جيدا لصوته.

[1] المصدر السابق، ص 269.

[2] المصدر نفسه ، ص 287 .

إن المتلقي وهو يقرأ شعر مفدي زكريا يلاحظ سهولة أفكاره ويسر معانيه، حتى أنه يتأتى لبعض الناس بأنه ينظم لجميع فئات المجتمع كل على حسب مستواه ، وربما يرجع ذلك إلى أنه يعبر عن قضايا مجتمعه بعيدا عن التقليد والاجترار ، كما أن الصدق في تجربته الشعورية فجر قريحته في ظروف مختلفة " فنظم الشعر في أحواله العادية ، وفي الزنزانات المظلمة ، وإبان المهرجانات المفاجئة والمواقف الطارئة "[1].

ومما لاشك فيه أن رغبته في التعبير عن الواقع الجزائري وأحوال شعبه هو ماجعل شعره قويا ومجلجلا في نبرته سهلا وبسيطا في أسلوبه ، إلا أن هذا اليسر والسهولة فيه لا ينفي أبدا بأنه يشتمل على خصائص فنية و رؤيوية ميزت أسلوبه عن كثيرا من شعراء جيله ، ولكن وقبل الولوج إلى عالم مفدي زكريا الشعري لابد لنا من امتلاك مفاتيح تجعلنا ندخله ببعض من الاطمئنان بدل الإقتحام ، وهي مفاتيح جاهزة يعرضها الشاعر نفسه لكل قارئ أو دارس لشعره ، وذلك باجتزاء بعض النقاط من كلمة التقديم المثبتة في أول ديوانه " اللهب المقدس " " لم أعن في اللهب المقدس بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاتها المطلولة ...والشعر في نظري إلهام لا فن وعفوية لا صناعة "[2] ومن هذه المحطات الموقفية من الشعر يمكن الوقوف على أهم ملامح التجربة الشعرية عن مفدي زكريا ومن أهمها :

أولا : اللغة الشعرية :

1 يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 437 .

2 مفدي زكريا ، اللهب المقدس (مقدمة الديوان) ، ص 4 .

للغة قيمة كبرى ودور هام في الشعر فهي البوابة التي يدلف منها إلى عالم النص الرحب ، وإن أي فهم له لا بد أن يتم بالقراءة الصحيحة لمعجمه ، الذي لا يعدو أن يكون إلا نتاج تراكم وتحصيل لعدد كبير من النصوص ، وإن كانت اللغة بالمفهوم العام ، كما يرى ابن جني " حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " فإن وظيفتها في العمل الشعري " لا تقتصر على المعاني الذهنية بدلالاتها المعجمية المحددة فحسب ، وإنما مهمتها الأولى أن تثير الأحاسيس والمشاعر لدى المتلقي بصورها وظلالها وتلك هي الوظيفة الحقيقية للفظة في التعبير الأدبي ، وهو ما يميزها حقا عن وظيفة اللفظة في التعبير العلمي الذي يهدف إلى تأدية المعنى المجرد بدقة ووضوح " [1].

كما تعتبر اللغة الشعرية أداة يكسب بها وجوده بين الفنون ، فإذا كانت الألوان وسيلة للرسم والحجارة والمواد المجسمة وسيلة للنحت فإن اللغة وسيلة للشعر وأداته إذا كان الشعر يعبر عنه بواسطة أدوات فنية من صورة ورمز وموسيقى ، فإن اللغة أداة فنية ذات أهمية كبرى ، لأنها تقوم بوظيفتين أساسيتين في العمل الشعري فهي من جهة أداة لتلك الأدوات الفنية المتعددة ، فعن طريقها تكون الصورة والرمز والموسيقى ، ومن جهة ثانية أداة فنية مستقلة في تأثيرها وتأثرها وذلك باعتبارها مجموعة ألفاظ تحمل خصائص يمكن أن تتغير من شاعر إلى آخر في مصادرها المستقاة منه ، وفي درجة قوة معانيها وفي تجاورها أي في التراكيب[2]

1 محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ، ص 281 .

2 يحيى الشيخ صالح، المرجع السابق، ص 363.

بمعنى آخر " النص الشعري فعل خلق وإبداع وتعبير أداته اللغة ، التي لم تعد وسيلة نقل وتفاهم فحسب ، بل غدت وسيلة استبطان واكتشاف تثير المتلقي وتهزه من الأعماق ، وتغمره بإحاءاتها وإيقاعاتها[1].

– "والمتأمل في سجنيات مفدي لا يلمس جنوحا إلى الأحلام الرومانسية ، ولا يسرى فيها توهما كالذي نشهده ملء السمع والبصر في شعر كثير من الشعراء المعاصرين في العالم ، وإنما في قصائده تصوير لواقع مؤلم ، بلغة فرضها الواقع لتعبر عن تجربة صادقة أي أنه هرب من الأجواء الرومانسية إلى جو الحقيقة والواقعية التي تتخذ العمل والجد غايتها العليا[2].

لقد رفع هذا الشاعر راية شعارها القوة والدعوة إلى التحدي ، فالحرية لا تسترد إلى بالسلاح وخوض الخطوب ، والقوة ليست وسيلة لتحرير الوطن أو دفع العدو فحسب ولكنها موقف تبلور عن إرادة واعية وتجربة مريرة علمت الشعب أن ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلى بالقوة .

ومن هذه القوة التي اختارها الشعب لمجابهة العدو والتصدي للسياسة الإستعمارية ، استمد مفدي لغته الشعرية ، إنها لغة لا يقرأ فيها إلا الرفض والتحدي ، فكل لفظة في شعره تحمل جرسا قويا مجلجلا سواء من الناحية الصوتية أو من ناحية المعنى ، فألفاظه بصورة عامة فخمة قوية لا تحمل إلا معاني القوة والحدة ، وشعر يحمل ألفاظا من ألفاظ النار والرشاش والسيف والمدفع والبندقية والقنابل والرصاص لا يمكن إلا أن يكون شعرا صاخبا يأسر الأسماع وينخر القلوب ولا مكان فيه للرفق والليونة والضعف .

1 خليل ذياب أبو جهجه ، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والنظير والنقد ، ط1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1995 ، ص215 .

2 نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ط6 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1981 ، ص 56 .

فهناك من هذه الألفاظ ما يحمل معنى الصلابة والشجاعة والثبات والبطولة يقول مفدي :

مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلهب في دجنتها التهابـــــا [1]

وثبنا كالكواسر وإتخذنـــــا إلى إستقلالنا الأرواح طرقا [2]

ومنها ما يحمل معنى الوحشية والفظاظة التي تتناول المستعمر وأعوانه في قوله :

وفي الجزائر للتقتيل مدرســـة تعلم الفتك بالشعب الشياطينا

وفي الجزائر للتمثيل محكمـــة فيها الفظائع سموها قوانينـــا[3]

ومنها ما يحمل معنا التضامن والتآزر التي تتناول الشعوب العربية في موقفها من الثورة.

إما تنهد بالجزائر موجـــــع أسى الشام جراحه وتوجعـــا

وإرتج في الخضراء ،شعب ماجد لم تثنه أرزاؤه أن يفزنـــا[4]

ومن فعاليات وسطوة في الألفاظ التي تتحدث عن السلاح :

لغة القنابل ،في البيان فصيحـــة وضعت، لمن في مسمعيه صمام

(لوافح)النيران خير (لوائـــح) رفعت لمن في ناظريه ركـــام

1 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 33.

2 المصدر نفسه، ص 104 .

3 المصدر نفسه، ص 150.

4 المصدر نفسه ، ص 53 .

والحق، والرشاش إن نطقا معا عنت الوجوه وخرت الأصنـــــام[1]

وقوله :

السيف أصدق لهجة من أحــرف كتبت فكان بيانها الإبهـــــــام

وبلادنا بيد الكلاص (*) خلاصهــا هيهات يجدى مجلس وخصـــــام

والنار أصدق حجة فاكتب بهـــا ما شئت تصعق عندها الأحـــلام

إن الصحائف للصفائح آمرهـــا والحبر حرب والكلام كـــــــلام [2]

ولأن العدو لا يفهم إلا لغة القوة يجب ألا نعامله إلا بالمثل ونختار الرصاص لمواجهته .

نطق الرصاص فما يباح كـــلام وجرى القصاص فما يتاح ملام[3]

ــ هذه المقاطع وما تحويه من ألفاظ توحي أن الشاعر يرى الحرية والكرامة مقرونتان بالسلاح ، فمن لا يعرف لغة السلاح لا يعرف رائحة الحرية التي ينشدها الشعب الجزائري بأسره وفلسفة القوة عنده تهدف إلى الفضيلة الأخلاقية السامية وهي استعادة كرامة الإنسان وصيانة شخصيته من الذوبان وتحقيق وجوده وحريته في أسمى معانيها ، حرية الإعتقاد ، حرية الفعل ، حرية القول ، حرية السكون والحركة ، ولعل المتأمل في هذه اللغة يجدها أحفل بالظلال و الإحاءات وأقدر على التصوير[4] " لغة أجاد انتخابها من

1 المصدرالسابق ، ص 44 .

(*) كلمة أجنبية شاع استعمالها وهي الخزان الذي تنطلق منه القديفة في البندقية .

2 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص46 .

3 المصدر نفسه، ص 42 .

4 حنان بومالي ، المرجع السابق ، ص 76 .

بين ركام الألفاظ العربية ، قادرة على نقل تجربة الشاعر ومعاناته وألفاظه ليست ألفاظ ركبت في السياق تركيبا عشوائيا ، وإنما كانت تحتل مكانها عن قصد ودراية لتوحي بالمراد ، وتجسم الفكرة وتوضح الموقف ، هذا الموقف الذي لم يعد موقف الشاعر كفرد ، وإنما أصبح موقف الشعب الجزائري الثائر إن لم نقل موقف الأمة الإسلامية كلها في تلك الفترة "[1]

ــ لقد وفق مفدي زكريا توفيقا كبيرا في التركيز على كلمات بعينها أرادها أن تكون رمزا للقوة كالمدفع والرشاش والرصاص والبندقية ، فقد كانت تنسجم انسجاما متينا مع تجربة الشاعر كواحد من بين آلاف المضطهدين الجزائريين كما أنه بنى شعره من لغة الواقع المعاش إذ تجنب ذكر الأسلحة التي لم يكن يملكها الشعب ، فلم يذكر طائرة أو دبابة أو غيرها من الأسلحة المتطورة التي يملكها المستعمر وإن ذكرها شاعرنا فلا يسعى من ورائها إلا التعبير عن القهر الاستعماري شأنها شأن : السياط ، السلاسل ، السجن ، الجلاد ، المقاصل ، فقد وظفها كرمز للقوة الطاغية ، أما سلاح المجاهدين والثوار فقد أكثر من تكراره لأنه يعبر عن وجدان الأمة ماضيها وحاضرها ، ومعظم الألفاظ التي عبر بها عن هذا السلاح ذات إشراقة موحية بالمعنى مقوية له، كما في قوله:

ولعلع من (من شلعلع) ذو بيان فأنطق فوق (جرجرة)الجعابا[2]

فلقد انسجمت الأجراس مع المعنى ، لأن كلمتي " شلعلع "و "جرجرة " يرمز بهما للقوة ، قوة الإصرار والقدرة على قهر العدو.

1 أحمد رحماني ، المرجع السابق ، ص 17 .

2 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 31 .

" و مفدي بهذه الطريقة التي وظف بها كلماته جعلها نامية ، فتحدت بذلك معناها الوضعي و الإصطلاحي إلى معنى جديد ، فالرشاش والمدفع والشعلل لم تعد مسميات لأشياء وإنما أصبحت تدل على معنى واحد وهو القوة في مظاهرها المختلفة ، صارت كلمات تقمصت روحا جديدة هي موقف الثوار من العدو "[1]

كما يمكن ملاحظة ظاهرة لغوية أخرى تلفت نظر المتطلع على شعر مفدي زكريا وهي إقلاعه عن الكلمات التي كانت قديما تعبر عن القوة ، كالرمح والدرع ،السهم ، الغمد ، الضرغام ، وإن وظفها فإنما فقط ليرمز للموقف الصارم الذي اتخذه الثوار والمجاهدين كلفظ " السيف " الوارد في قوله :

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام[2]

ــ كما أن هناك عامل آخر لإقلاعه عن استعمال الألفاظ القديمة ، وهو جنوحه إلى التعامل مع لغة الواقع الثوري بصدق عن معاناة شعبه ، فلم يكن في حاجة إلى مخالفة الواقع . ومن كانت لغة القوة ركيزته لن تجد الروح المنهزمة إلى قلبه سبيل ، هذه هي حقيقة شاعر يصنع شعره من ذوي المدافع وطلقات الرشاش .

إضافة إلى هذا فاللفظة عند مفدي ذات جرس موسيقي يتناسب والمضمون الذي تعبر عنه القصيدة بما تحمله هذه اللفظة من جرس وصفات صوتية عن طريق حروفها وصيغها الصرفية لأن " الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فيستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام

1 أحمد رحماني، المرجع السابق ، ص 42.

2 مفدي زكريا، المصدر السابق ، ص41.

العباد ، وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف[1] فكانت ألفاظه قوية فخمة لا مكان فيها للضعف واللين والرفق .

وخلاصة القول أن اللغة الشعرية لمفدي زكريا راجعة إلى طبيعة الواقع الجزائري آنذاك الذي توافق معه أسلوب الشاعر فكان " جزلا فخما عربيا صميما في ألفاظه وفي روحه يميل إلى التدقيق ورسم الجزئيات في تركيزه على الأسماء والأعلام ، وتحديد المسميات بأسمائها الخاصة .

ــ ولعل كل ذلك يتدخل بطريقة غير مباشرة في بلورة أفكار الشاعر وواقعيتها ، وتقديما إلى القارئ أو السامع في سورة مغرية تدعو إلى تقبلها والتفاعل معها ، فطبيعة اللغة التي يتكلمها المرء ومدى براعته فيها لها أهمية كبرى في تحديد القيمة الجمالية لنتاجه "[2] وكلما كان اختيار الألفاظ موفق وواعيا كلما عبر عن إحساس الشاعر وعواطفه خاصة منها ما تعلق بالتصميم والإصررا على مواجهة الواقع ، وهذا ما جعل مفدي يتميز عن الشعراء الجزائريين الثوريين بنغمته الصاخبة وأسلوبه الفخم والقوي ، وألفاظه الجزلة التي تشع حرارة وقوة .

2 ــ الموسيقى الشعرية:

يكسب الشعر خصوصيته بوسائل فنية متعددة تختلف درجة أهميتها ونجد في مقدمة هذه الوسائل الإيقاع والصورة فلا يعتبر أي كلام شعرا في غياب أحدها فالكلام الذي يعتمد التقرير والمباشر مع توافر الموسيقى ليس إلا نظما و الذي يعتمد التصوير الشعري الخيالي دون موسيقى ليس إلا نثرا فنيا ، فالإيقاع والصورة يجريان معا في حلبة الشعر ،

1 ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر، تــ أحمد الحوفي، بدوي طبابة، دار الرفاعي، الرياض،1983، ص 240 .

2 يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 384 .

" لكن أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجامه في توالي المقاطع وتردد بعضها بقدر معين وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر " [1] وذلك لأن الموسيقى هي التي تميز الشعر عن النثر بينما الصور هي ميزة الشعر والنثر معا .وفي دراستنا للموسيقى نجد أن الموسيقى نوعين : موسيقى خارجية وسيلتها الأوزان والبحور أما الموسيقى الداخلية تتمثل في الإيقاع و الجرس "إن الهدف من موسيقى الشعر هو التأثير ، شأنها في ذلك شأن الصور الشعرية لكن الموسيقى تتدخل في تحديد مغزى الصورة ، ومعاني القصيدة بصورة عامة لأنها ــ أي الموسيقى ــ هي الأسهل والأبسط في عملية التذوق لدى القارئ أو المستمع ، ذلك لأن وظيفة الموسيقى هي إعداد المستمع نفسيا لولوج عالم القصيدة ، بحيث تضع المستمع في جو القصيدة وموضوعها مما يساعده على تحليلها وفهمها فكريا و معايشة الشاعر فيها شعوريا ... لذلك فإن موسيقى القصيدة ــ أي قصيدة ــ تختلف عنها في أي قصيدة أخرى تبعا لإختلاف المواضيع وحالات الشعور ، فهناك الموسيقى الحزينة والمرحة والثائرة والعنيفة، والهادئة الثقيلة والخفيفة "[2].

والموسيقى ، إنما هي التي تكون في البحر المختار والروي المناسب ، والشاعر المبدع حقا هو الذي يحس بفطرته الفنية جريان الموسيقى في أبياته و يختار اللفظ والكلمة والوزن والروي المنسجم مع موضوعه[3].

لم يخرج مفدي زكريا في شعره عن المألوف فقد كان شعره شعرا خليليا وبالتالي لم يخرج عن البحور الستة عشر لأن التراث العربي القديم هو منبع ثقافته ومصدر إلهامه ، فجاءت معظم قصائده تقليدية مع وجود بعض المحاولات لدى مفدي لكنها كانت ضئيلة .

1 إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر ،.ط3 ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة 1965 ، ص 8 ،9 .

2 يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق، ص296، 297 .

3 محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ، ص 192 .

فمن حيث الموسيقى الخارجية نجد مفدي زكريا أنه نظم على بحور معينة وكان شعره على تلك البحور وما نلاحظه أن هذه البحور هي نفسها المشهورة عند الشعراء القدامى ، فنجد مثلا في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني النسب التالية " الطويل 36% ، الكامل والبسيط 12% ، الوافر 11% والكامل 8% وفي مقابل ذلك نجد ديوان اللهب المقدس يحتوي على النسب التالية ، الخفيف 30% البسيط 25 % الطويل والرمل 20% ، الكامل 10 % [1].

نلاحظ أن البحور المشهورة عند القدامى هي تقريبا المشهورة عند مفدي زكريا مع وجود بعض الفروق البسيطة فيما يخص البحر الخفيف والرمل اللذان إحتلا نسبة كبيرة من شعر مفدي عكس ما كان عليه الشعر القديم يقول إبراهيم أنيس "البحر الخفيف قد بدأت تعلو أسهمه في سوق الشعر أما الرمل فهو ذلك البحر الذي ظل في أشعار القدماء خامل الذكر حتى جاء العصر الحديث ونهض به نهضة كبيرة أوشكت على تنزله المنزلة الثانية في أوزان الشعر "[2] فاهتمام مفدي بهذين البحرين لم يكن بالشاذ فهي ظاهرة عامة عند شعراء النهضة والعصر الحديث .

نلاحظ أن قصائد مفدي التي كتبها على وزن الرمل كلها تعبر عن الرفض والتحدي فتميزت بموسيقى قوية متماسكة صاخبة لأنها تعبر عن الحالة النفسية للشاعر " فنعود إلى علاقة الخليل في علاقة الأوزان بالحالة النفسية ، فنجد أنه ربما توصل إلى هذه الفكرة نتيجة لعملية استقراء وجد يفيها أن الشعراء حين يعبرون عن حالات الحزن إنما يعبرون

1 يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 298 .

2 عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، ط4، مكتبة غريب ، القاهرة ، مصر ، ص 72 .

عنها في الأوزان الطويلة وأنهم حين يعبرون عن حالات السرور والبهجة يختارون لذلك الأوزان القصيرة "[1].

فجاءت قصيدة "الذبيح الصاعد" على وزن الخفيف لأن الشاعر في حالة رضى وغبطة بالشهيد الذي يقدم روحه لفداء وطنه وفي سبيل عيشه شعبه سعيدا عزيا مكرما ، الأمر كذلك بالنسبة للقصيدة "حروفها حمراء " التي تمثل انتصارا بالنسبة إليه مادام الشعب يعي ويعرف مصيره وحقه ويسعي لتحقيقه ، هذا عن الأوزان القصيرة أما الطويلة فقد إستعملها نسبة كبيرة في قصائد السجن مثل قصيدة " إقرأ كتابك " التي نظمها في الذكرى الرابعة لاندلاع الثورة في سبعين بيتا تتضمن هذه القصيدة التفاؤل و الإحساس بالقرب من النصر

أما القافية و الروي نجد مثلا حرف الراء يحتل أكبر نسبة في قصائده يليـــــه حرف الـــدال و النون و الميم ثم حرف الهاء في الدرجة الثالثة وهذا ما هو شائع عند أغلب الشعـــراء و أكثرها ورودا في الشعر العربي خاصة الراء الام الميم، النون ،الباء، الدال[2].

عند دراسة قصائد اللهب المقدس نجد حرف الهاء ورد في عدد كبير من القصائد منها " لا تعجبوا إن جاءتكم رسالة "التي نشدها في المغرب عند خروجه من السجن وهروبه إلى المغرب فهي تعبر عن حالة نفسية مضطهدة غير مستقرة كانت الهاء مناسبة لموضوعاتها ، ثم قصيدة " إلى الدين تمردوا " وهي تمثل سابقتها في الوضع آنذاك و

1 إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 200.

2 أنظر: يحي الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 307 .

معاملة الإستعمار للجزائريين الأبرياء العزل ، بالإضافة إلى قصيدة " أن ربك أوحى لها " نظمها إثر زلزال الأصنام وما خلفه من حزن و مأساة .

أما القصيدة الأخيرة بعنوان " فلسطين على الصليب " حيث يناشد فيها الأمة العربية بإيقاظ الضمير ومساعدة الشعب الفلسطيني بعد تقسيم فلسطين في عامها الثالث عشر فكل مواضيع هذه القصائد هو ما جعل حرف الهاء مناسبا لرويها "لأنها من الناحية الصوتية تتناسب مع مضامين التأوه والتحسر وعدم الرضا وكل القصائد التي وردت فيها الهاء رويا عند مفدي زكريا تتناول مواضيع لا تبعث على الرضا و الاطمئنان بصورة عامة "[1].

أما عند الموسيقى الداخلية فنتطرق لإحدى قصائده التي نظمها بالزنزانة تحت عنوان "اقرأ كتابك " في سبعين بيتا كتبها بمناسبة الذكرى الرابعة لاندلاع الثورة فهو بقصيدته هذه يتحدى القضبان الحديدية وظلمة الزنزانة خاصة وهو لا يخـــــاف على حريتــه التي فقـــدها و أصبح رهين السجون الضيقة فكانت نفسه تشع بالإيمان بالنصر الأكيد خاصة أن الثروة لم تعـــد فكـــــــرة تعيش في الأذهان بل أصبحت واقعا يفرض نفسه على المستــوى الوطنـــي و العالمي وهذا ما جعل الشاعر يعيش الذكرى بقلب مفعم بالإيمان بالنصر ومعنويات عالية فيقف موقف الفخر و الاعتزاز و التحدي

هذا (نفمبر) قم وحي المدفـــع وذكر جهادك ...والسنين الأربعــا

وإقرأ كتابك للأنام مفصـــــــلا تقرأ به الدنيا الحديث الأروعـــــا

وأصدع بثورتك الزمان وأهلـــه واقرع بدولتك الورى و(المجمعا)

1 المرجع السابق ، ص 299 .

وأعقد لحقك في الملاحم نـــــدوة يقف السلاح بها خطيبا مصقعا !...

إن الجزائر في الوجود رسالـــــــة الشعب حررها وربك وقعـــــــــا

إن الجزائر قطعة قدسيـــــــــــــة في الكون لحنها الرصاص ووقعـا

وقصيدة أزلية أبياتهـــــــــــــا حمراء كان لها (نفمبر) مطلعـــــا

نظمت قوافيها الجماجم في الوغـا وسقى النجيع رويها فتدفعـــــــــا[1]

فمضمون القصيدة كما هو واضح مضمون قوة وتحد إنه أبعد ما يكون عن الشكوى والتذمر والأنين لذلك سيطر على جوها العام طابع حماسي مندفع ، وسيطر على ألفاظها قوة جعلتها تتصل بالشدة لشدة حروفها وصيغها ، فأغلب الحروف هي حروف انفجارية (القاف ، العين ، الصاد ، الطاء ...) وهي الأكثر تردد في ألفاظها (قم ، المدفعا ، الأربعا ، إقرأ إعقد، الأروعا، إقرع،الشمر ، تقرأ)[2].

ومن المعروف أن كل وزن يتكون من سكنات وحركات فيجعل الإيقاع متميزا ، والسواكن في هذه القصيدة جاءت أغلبها مشددة وهذا ما يوحي بالقوة والشدة (ركّعا ، الشّعب ، ربّك قدسّية، الرّصاص ، شمّر) " ولأن الألفاظ تجري في المسمع مجرى الأشخاص من البشر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص دوي ذماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ

1 مفدي زكريا، اللهب المقدس ، ص 52،51 .

2 أنظر : يحيى الشيخ صالح ،المرجع السابق ، ص 307 .

أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم و تأهبوا للطرد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف من الحلي "[1] .

فمطلع القصيدة بما فيها العنوان جاء بصيغة الأمر المباشر ما يجعل القارئ يحس بقوة موقف الشاعر الذي استمده من قوة الثورة : (قم وحي المدفعا ، إقرأ كتابك ، إقرع بدولتك إعقد لحقك) ومن السهولة ملاحظة هذه القوة خاصة عند إنشاد القصيدة وذلك لوجود الشدة كثيرا وكذلك حرف الراء الذي يدل على الشدة والقوة حيث لا يكاد بيت يخلو من حرف الراء فيذكر مرتين أو أكثر في بيت واحد

وقل الجزائر ...وإصغ إن ذكر إسمها تجد الجبابر ساجدين وركعا [2]

وكذلك بالنسبة للحروف المشددة هناك بعض الأشطر التي تحتوي ثلاثة ألفاظ مشددة من أربعة : (في الكون لحنها الرّصاص ووقّعا) ، (وسقا النّجيع رويّها فتدفعا)

ومن حيث قافية القصيدة نرى أنها عبارة عن عين مفتوحة مشبعة بألف إطلاق الصوت وهي من الأصوات التي تملك جلجلة وقوة ، فكأن الشاعر يحاكي صوت الرصاص و الإنفجارات كما أن القافية جاءت موحدة رغم طول القصيدة (سبعون بيتا) فثبات الشاعر على قافية واحدة هي ثبات في الموقف وعدم تغيير رأيه إتجاه الثورة ، وكذلك ثبات الثورة على المجابهة حتى تحقيق الاستقلال " فإذا كانت ألفاظ أبي تمام تشبه رجالا بأسلحتهم على ظهور خيولهم فإن ألفاظ مفدي زكريا في قصيدته " إقرأ كتابك "

1 ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ص 240.

2 مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 51 .

تشبه في قوتها وشدتها الصخور الصلدة في الجبال التي يتخذها الثوار معاقل لهم وتحكي بجلجلتها وصخبها قرقعة البنادق وفرقعة القنابل و إرتجاج الأرض "[1]

مما تقدم يبدو جليا أن للقصيدة موسيقى خاصة تتلاءم وشعور الشاعر غير أنه هناك من يقلل من شأن الرابط بين الوزن والعاطفة وحجتهم في ذلك أن شعراء العرب عبروا عن عواطف كثيرة في وزن واحد ، ويتجلى ذلك عند مفدي زكريا في قصيدة " زنزانة العذاب رقم73" من تنوع في العواطف من تحد وإشادة بالثورة وشوق وحنين ثم العودة إلى التحدي إلا أنه نظم على وزن واحد وهو البسيط ، ففي المقطع الثالث يصور الشاعر نفسه وقد هاجت في صدره المواجد في ظلمة السجن وتذكر الأحبة وأيام الصفاء وتخيل روحه طيفا يسري خارج السجن يزور الأحبة ويناجيهم بحديث خافت فيقول :

ورب نجوى كدنيا الحب دافئـــــــة قد نام عنها رقيبي ، ليس يسترق

عادت بها الروح من سلوى معطرة فالسجن من ذكر سلوى كله عبق[2]

إلى أن يبلغ به الهمس ذروته فيقول :

وتغرب الشمس تطوي في ملاءتها سرين أشفق أن يفشيهما الشفق[3]

إن صمت السجن الرهيب وسكون الليل جعل الشاعر يناجي حبيبته في هدوء بحديث خافت مهموس فجاءت المقطوعة هادئة الإيقاع توحي بالهمس لاعتمادها على حروف الهمس (السين ، الشين ، والحاء...) حيث تتكرر هذه الحروف بكثرة مما جعل موسيقى

1 يحيى الشيخ صالح، المرجع السابق ، ص 308 .

2 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 26 .

3 المصدر نفسه ، ص26.

القصيدة تتصف بهدوء ومدح لا تشتم منها رائحة الحزن والأسى لا يسمع منها صدى الذوي والصخب لأنه يتناول موضوع يتطلب أقصى الرقة والسلاسة[1] .

نخلص إلى أن الموسيقى الداخلية لها دور هام في شعر مفدي بل أنها أهم الأدوات الفنية التي تجعلنا نلج أسرار الإبداع عنده لأن الموسيقى الداخلية تنتج عن تفاعل الحال الشعورية النفسية الفيزيولوجية معا ، فترتبط بدقات القلب وسرعة تباطئها " لأن نبضات القلب تزيد كثيرا مع الانفعالات النفسية تلك التي قد يتعرض لها الشاعر في أثناء نظمه ، فحالة الشاعر النفسية في الفرح غيرها في الحزن واليأس ونبضات قلبه حين يتملكه السرور سريعة يكثر عددها في الدقيقة ولكنها بطيئة حين يستولي عليها الهم والجزع ولابد من تغيير نغمة الإنشاد تبعا للحالة النفسية فهي عند الفرح والسرور سريعة متلهفة مرتفعة وهي في اليأس والحزن بطيئة حاسمة ".

3 ــ الصورة الشعرية :

لم يكن مصطلح الصورة الشعرية متداولا بين العرب القدامى على الرغم من أن الشعر العربي لم يخل من التصوير الشعري بل كان النقاد العرب يتناولون التعبير فيما يعرف بالتشبيه والمجاز والاستعارة، لكن في العصر الحديث قد إلتفت النقاد إلى هذا المصطلح ــ الصورة الشعرية ــ وأهميتها في الشعر فدرس النقاد جذورها ووظائفها وطبيعتها فنتج الكثير من التعريفات على إختلاف الباحثين ووجهات نظرهم فعرفها عزالدين إسماعيل " أنها تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع "[2] .

1 أنظر: يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص310 .

2 عز الدين إسماعيل، المرجع السابق، ص 70 ، 71 .

وقد تعني الصورة الشعرية " أثر الشاعر المطلق الذي يصف المرئيات وصفا يجعل القارئ ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة أم يشاهد من مناظر الوجود والذي يصف الوجدانيات وصفا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه لا أنه يقرئ قطعة لشاعر "[1] فالصورة إذا إبداع ذهني لأنها تعتمد أساسا على مخيلة الشاعر ، لكن المقصود بذلك أنها لا تنتشز على خط الشعور عند الشاعر مهما يكن الموضوع الذي يتناوله بعيدا عن ذاته ، ولا تنفر عن الحالة النفسية التي يعيشها في قصيدته فإذا كان الشاعر مثلا يتناول بالتصوير تجربة حزن لا ينبغي أن تشي صوره بما يوحي بالفرح والسرور ، بل ينبغي ــ تحقيقا للوظيفة النفسية ــ أن تضلها سحابة من القتامة والتهجم[2] وعلى هذا الأساس سنتطرق إلى بعض النماذج من شعر مفدي زكريا و بالتحديد أول قصيدة في ديوان اللهب المقدس تحت عنوان " الذبيح الصاعد " التي قالها الشاعر على إثر إعدام أول شهيد بالمقصلة في سجن بربروس " أحمد زبانا ":

قام يختال كالمسيح وئيـــــدا يتهادى نشوان يتلو النشيـــــدا

باسم الثغر كالملائكة ، أو كالطـ ــفل يستقبل الصباح الجديـــدا

شامخا أنفه جلالا وتيهـــــــا رافعا رأسه يناجي الخلـــــــودا

رافلا في خلاخل زغردت تمـــ ــلأ من لحنها الفضاء بالبعيـدا

حالما كالكليم ،كلمه المـــــحـــ ــد فشد الحبال يبغي الصعـــودا

وتسامى كالروح في ليلة القـــد ر، سلاما يشع في الكون عيـــدا

1 زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ، ط2، منشورات المكتبة المصرية ، بيروت ، لبنان، – د ت –، ص 57 .

2 يحي الشيخ صالح ، المرجع السابق، ص 320 .

وامتطى مذبح البطولة معرا جا ، ووافى السماء يرجو المزيدا[1]

لقد وفق الشاعر إلى حد كبير في نقل الصورة التي كان عليها الشهيد ، فنحس ونحن نقرأ القصيدة ، وكأننا نعيش الحدث لحظة بلحظة ، فالشهيد يسير بتريث وهدوء وكأنه المسيح الذي يعرف نهايته ويسير إليها مطمئنا إلى مصيره ،و هو راض بكل ذلك في سبيل رسالته وإن كان الآخرون من القتلة لا يفقهون شيئا مما يفعله الشهيد ، فهو يسير نحو المقصلة وهو يبتسم كالملاك أو الطفل الذي يستقبل الصباح الجديد وعلى شفتيه تمتمة نشيد الشهداء ويمشي شامخا أنفه جلالا و تيها رافعا رأسه إلى السماء يناجي فيها الخلود الذي سيضمه بعد لحظات ، كل هذا وهو مدرك لقيمة موته عند أبناء بلده ، أما الأغلال في رجليه فهي ليست حديدا تصدر أصوات تمجها الآذان بل هي خلاخل أطلقت زغاريد ملأت ألحانها الفضاء .

وهو يبدو حالما كالكليم الذي يتلقى صوت الله فينقله ذلك الصوت إلى عوالم من التفكير و الإغراق تذهله عما حوله ، فأحمد زبانا كلمه المجد من السماء لكنه لم يكتف بالمكالمة وإنما طفق يشد الحبال (حبال المقصلة) إستعجالا منه للصعود إلى المجد ومعانقته وإنه في صعوده ذلك يشبه الملاك جبريل وهو يرجع إلى السماء في ليلة القدر بعد أن نشر في الأرض السلام ، وأشاع في الكون فرحا وابتهاجا[2] .

ولكن زبانا كان يعانق حياة أخرى ، كان أقرب ما يكون بين الكاف والنون ، فكان ذلك الهمس ، وكانت تلك السكينة ، وكان الحلم الهادي الواصل بين الأرض والسماء لأن الرجل بين يدي خالقه ، فكانت صور الإنسان المظلوم المقهور تحت أيدي جلاديه أقوى

1 مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 17 .

2 يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 321 .

من هذا الجلاد الملثم الخائف ، صور جعلت مفدي إنساني الرؤية ، رسالي المبدأ ، فكان كل شيء يعلو ولا يعلا عليه ، وبذلك كانت الصورة صورة الحق الذي يخرج من هذه الظلمات صورة الفجر الذي يتنفس عقب كل ليل ، لأن الشدائد محك الرجال ...[1]

صور مفدي زكريا سير أحمد زبانا إلى المقصلة في صورة كبيرة هذه الصورة الكبيرة هي تركيبة لصورة جزئية اجتمعت فكونت صورة واحدة متناسقة الضلال وألفاظها ذات دلالات موحية فكانت إشعاعا أضاء جوانب الصورة وعمق أبعادها بالتشبيه بالمسيح يرمز من الجانب الخارجي إلى عملية الاضطهاد ومحاولة الصلب بكل ما فيها من قسوة ووحشية إلا أنه من الجانب الداخلي يرمز إلى السعادة التي تغمر الشهيد فالمسيح عندما يسير به نحو الصليب (وإن كان لم يصلب ولم يقتل كما ورد في القرآن) كانت ترتسم على وجهه علامات الرضا والغبطة لأنه غير راضي بما يعيشه ومدرك لقداسة الرسالة التي يموت من أجلها فهذا هو حال أحمد زبانا الذي لا يرعبه الموت الذي يسير إليه بقدميه على بعد خطوات فقط لأنه يعرف قداسة مبدئه كما أن لفظ " قام " توحي بأن الشهيد في رضى وغبطة وعدم خوف من الموت فهو لم يأخذ ولم يحمل بل قام إليها بإرادته وعلى قدميه يسير نحوها واستقبال الصباح يوحي بأبعاد أخري للصورة ، فالصباح لا يكون إلا بعد الليل والاستقبال لا يكون إلا لأهمية الشيء المستقبل فالليل يرمز لحالة الاضطهاد والظلم التي عاشها الشهيد في السجن أما الصباح الذي يستقبله أحمد زبانا هو النعيم الخالد الذي ينتظر كل شهيد.

أما عبارة خلاخل زغردت فالشاعر صور الشهيد ليس شخصا حكم عليه بالإعدام يسير نحو الموت بل عروسا تزف إلى بيتها الجديد ، خاصة وهو يشد الحبل يبغي

1 محمد زغينة، تأملات في سجنيات مفدي زكريا ، مجلة الحية ، ع 6 ، 2002 ، ص 331 ، 332 .

الصعود واللفظة "يشد " توحي بالقوة والرغبة في الصعود إلى جانب رفاقه الشهداء السابقين .

لكن هذا الحديث لا ينفي تأثر مفدي بإعدام زميله بل كان متأثر أبلغ التأثير وتأثره كان من نوع خاص لا يرافق دائما قضايا الموت وحوادث الإعدام بل هو شعور نحو من قضى نحبه في الدفاع عن الوطن ونبقى مع القصيدة للبحث عن التي جعلت من إعدام أحمد زبانا لا تبعث عن الحزن والأسى والحجة في ذلك أن الثورة لا تندلع إلا بالتأكد من عدم نجاعة الوعود الفرنسية والوسائل السياسية السلمية لتحقيق الإستقلال :

يا فرنسا كفا خداعا فإنـــــــــا يا فرنسا لقد مللنا الوعـــــــودا

صرخ الشعب منذرا فنصـــــــا ممت ، وأبديت جفوة وصـــــدودا

سكت الناطقون وإنطلق الرشـــا ش ، يلقي إليك قولا مفيـــــــدا

نحن ثرنا ، فلا ت حين رجــوع أو ننال إستقلالنا المنشـــــــودا [1]

مادامت الوسائل السلمية غير مجدية فلا بد من أن ينطق الرشاش وما دامت الثورة لا تتم إلا بضحايا تتقدمها ثمنا لتحقيق هدفها ، ومن هذا المنطلق أصبح الاستشهاد في سبيل الثورة شيئا يثلج الصدر ويبهج النفس ، فكل شهيد هو خطوة متقدمة نحو الحرية وتحقيق النصر

فمضى الشعب بالجماجم يبني أمة حرة وعزا وطيـــــــــدا[2]

1 مفدي زكريا، اللهب المقدس ، ص 17 .

2 المصدر نفسه ، ص 20 .

فلا غرابة أن يودع الشهداء بالزغاريد والهتاف ، ولا تذرف عليه دموع إلا ما كان من دموع الفرح والوداع .

هناك حقيقة يقدرها النقاد في طبيعة الصورة " ففي الصورة الشعرية تجتمع عناصر متباعدة في الزمان والمكان غاية التباعد لكن سرعان ما تأتلف في إطار شعري واحد "[1] وهذا ما نلاحظه على مفدي زكريا إذ تبتعد أطراف صوره (أو طرفها في الصورة القائمة على الشبيه المفرد) لكن تلك المسافات الشاسعة بين أطرافها لا تبقى كما هي بل إن الشعور يلغيها ،و يجعل الأطراف المتباعدة شيئا واحدا[2] .

فالنشوة و الإبتسامة لا تكون لإنسان يرى أجله في المقصلة ، وزغردة الخلاخل في قدم العروس هي أبعد ما تكون عن صرصرة الأغلال في رجلي المحكوم عليه بالإعدام فالظاهر في أطراف التشبيه أنها متناقضة في التفكير العادي لكن الصورة لا تخضع في علاقتها للتفكير المنطقي وإنما لمنطق الشعور و الدافع النفسي .

نلاحظ في شعر مفدي أنه قليلا ما يقدم صور مفردة في موضوع ما فصوره في الغالب صور جزئية تتآزر لتشكل صورة كبيرة وتجعلها تتوازن في خط الشعر وهذا ما تبين لنا من خلال قصيدة الذبيح الصاعد أنها تضم مجموعة من الصور (المسيح ، الطفل العروس ، الكليم ...) تكاثفت هذه الصور فيما بينها فشكلت صورة للشهيد في موته .

1 عز الدين إسماعيل ، المرجع السابق ، ص 108.

2 أنظر: يحيى الشيخ صالح ، المرجع السابق ، ص 333 .

من المعلوم أن الشاعر يعتمد في تكوين صوره الشعرية على خياله والخيال في حقيقته يرتكز على ثقافة الشاعر التي تساهم في تكوين صوره الشعرية " فنوعية الثقافة واتجاهها تطبعان الصورة عنده بطابع التقليد والمحافظة أو التجديد والمفاجأة "[1] .

فنجد مفدي زكريا يستوحي صوره من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأدب العربي القديم الكريم

فعن أثر القرآن الكريم في الصورة الشعرية لدى مفدي "فلا نكاد نجد قصيدة واحدة عند مفدي لم يتضح أثر القرآن فيها ظاهرا ، فهو إن لم يتضح تعبيرا اتضح مضمونا وإن لم يتضح لغة إتضح معنى وما من شك في أن القرآن كان يحتل مكانة مرموقة في نفس زكريا " [2].

عندما نقرأ قصيدته "إن ربك أوحى لها " فنلاحظ أنه شبه الأصوات المهولة التي نتجت عن زلزال الأصنام (ولاية الشلف حاليا) وما خلفه من هلاك البلاد والعباد ، خيل إليه في عظمتها بأهوال القيامة فيقول :

هو الإثم زلزل زلزالهـــــا فزلزلت الأرض زلزالهـــــا

وحملها الناس أثقالهـــــم فأخرجت الأرض أثقالهـــــا

وقال ابن آدم في حمقـــه يسائلها ساخرا ما لهـــــــا

إلا أن إبليس أوحى لكـــم إلا أن ربك أوحى لهـــــــا [3]

1 محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ، ص 470 .

2 المرجع نفسه ، ص 333 .

3 مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص ، 233 .

نلاحظ أن الشاعر يكرر المناظر التي تصور يوم القيامة فقلد كل الألفاظ تقريبا لحد التضمين و الاقتباس ، فأبياته تذكرنا بسورة الزلزلة في قوله تعالى " إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها " [1].

أما ليلة نوفمبر الخالدة التي انطلقت فيها أول رصاصة فغيرت مجرى الحياة في الجزائر التي عاشت قرن وثلث القرن تحت الاضطهاد الاستعماري فلم يجد مفدي لها مثيل في العظمة إلا ليلة القدر تلك الليلة الفاصلة التي أنزل فيها القرآن فحول مجرى البشرية من العبودية إلى الحرية ومن ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام فقال مفدي :

دعا التاريخ ليلك فإستجابـــــا نفمبر هل وفيت لنا النصابـــا

وهل سمع المجيب نداء شعــب فكانت ليلة القدر الجوابـــــا

تبارك ليلك الميمون نجمـــــا وجل جلاله هتك الحجابـــــا

زكت وثباته على ألف شهـــر قضاها الشعب يلتحق الصــرابا

... تنزل روحها من كل أمـــر بأحرار الجزائر قد أهابـــــا[2]

نلاحظ أن الصورة مستوحاة من سورة القدر التي يقول سبحانه وتعالى فيها :" إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر "[3]

1 القرآن الكريم ، سورة الزلزلة الآية 1،5 .

2 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، ص 33 .

3 القرآن الكريم ، سورة القدر الآية 1، 5 .

وفي حديث الشاعر عن الوحدة المغربية يقول :

كفر الألى قالوا الشمال ثلاثـــــــة ودعوا إلى إذلاله بالنـــــــــــار

نصبوا العصى على الحدود سفاهة وسعوا إلى توزيعه لضـــــــررا

والمغرب العربي شعب واحـــد ملء العروق ، ودم العروبة جاري[1]

فالأبيات مصدرها قوله تعالى :"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من اله إلا إله واحد " [2] فالشاعر يرى أن من يعتقدون أن المغرب العربي ثلاثة (الجزائر المغرب تونس)هم كفرة كالذين يؤمنون بالله ثلاثة (المسيح ،إبنه ، الله) كما يصف مفدي المرأة الجزائرية التي لم تتأخر عن أداء الواجب الوطني فإستوحي من الآية الكريمة :" حور مقصورات في الخيام " [3] فيقول مفدي :

وتحت خيامها إنبجست عيون لها هاروت قد سجد احتسابا[4]

وقد تتخذ الصورة الشعرية المقتبسة من القرآن أسلوبا آخر وهو أن تجتمع الصورة الكلية من عدة سور قرآنية يضم الشاعر مشاهدها في صورة واحدة مثل قصيدة "الذبيح الصاعد"في ذكره (المسيح ، الكليم ، الروح ، عيسى) وهنا لا تكون الصورة المقتبسة ممن سورة معينة و إنما إستخرجه من ثقافته حول قصص الأنبياء

1 مفدي زكريا، اللهب المقدس ، ص 100 .

2 المصدر نفسه.ص36

3 القرآن الكريم، سورة المائدة الآية 75 .

4 مفدي زكريا، المصدر السابق ، ص 36

أما المصدر الآخر للصور الشعرية فهو الشعر العربي ويعد من أغزر الروافد الثقافية لمفدي بما فيها العصر الأموي والعباسي التي يظهر تأثره بأبي تمام الذي نلمس بصماته كثيرا في شعر مفدي حيث يقول :

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهـــــــــــام

و النار أصدق حجة فأكتب بها ما شئت ، تصعق عندها الأحـــــــلام

إن الصحائف للصفائح أمرهـا و الحبر حرب والكلام كـــــــــلام [1]

يظهر تأثر مفدي بأبي تمام في بائيته التي قال فيها :

السيف أصدق أنباءا من الكتـــب في حدها الحد بين الجد واللعـب

بيض الصحائح لاسود الصحائف متونهن جلاء الشك والريـــــب

والعلم في شهب الأرماح لامعـــة بين الخمسين لا بين السبعة الشهب[2]

فالشاعران لهما نفس الرأي في مواجهة الشدائد وضرورة استخدام القوة في أوقات الجد ولا مجال للكلام في أوقات مثل هذه .

كما تأثر مفدي بالمتنبي في قوة لغته وشخصيته وأفكاره وحكمته فالشاعران يلتقيان في إيمانهما المطلق بمذهب القوة وأخذ الحقوق انتزاعا ورفض التخاذل و الضعف يقول المتنبي:

1 المصدر السابق ، ص 41 .

2 أبو تمام ، الديوان ، ضبط وشرح شاهين عطية ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ص118 .

أنا ملء العيون عن شواردهـــا فيسهر الخلق ويختصـــــــــم[1]

أما مفدي فيقول متحديا السجان :

أنام ملء عيوني غبطة ورضـــى على صياصيك ، لا هم ولا قلـــق[2]

وإذا قال المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمـــــــم[3]

معتدا بنفسه إلى حد الغرور فإن مفدي يشيد بالثورة التحريرية وما أحدثه من تغيير:

سمع الأصم رنينها فعانلهـــا ورأي الأعمى الطريق الأصنعـــا[4]

هكذا ومن خلال هذا النماذج لمفدي زكريا فإن الصورة الشعرية عنده تقوم بوظيفتها المعنوية والنفسية بشكل متوازن فهي تعبر عن نفسيته وشعوره إزاء ما يتطرق إليه من أحداث وقضايا

كما يظهر تأثر مفدي بالقرآن الكريم فكان توظيفه للقرآن ناجحا مما خلق تلاحم بين المعني و اللفظ في شعره حتى يصعب لمن لا يحفظ القرآن الكريم الاهتداء إلى البعض منها خاصة عند توظيف اللفظ دون المضمون ، بالإضافة إلى القرآن نجد الشعر العربي متجليا في شعره سواء كان إقتباس أو تضمين و أحيانا إستيجاء للمعنى العام في القصيدة

1 المتنبي، ديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر ، د ط ، 1983 ، ص 332 .

2 مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، 25 .

3 المتنبي ،المصدر السابق ، ص 300 .

4 مفدي زكريا ، المصدر السابق ، 32 .

إذن هي أصول متجدرة كان مفدي يستمـــد شعره منها، ما جعل شعره يتصف بالأصـــــالة و القوة و هذا طبيعي من شاعر بني يزقن المتشبع بالثقافة الدينية و العربية.

خاتمة:

إن الشعر الصادق دائما يقدم للثورة ما لا تقدمه البيانات و التاريخ كما انه يشير بدقة إلى درجة توغل الثورة في نفوس معتنقيها و التالي إلى مدى شعبيتها،وشرعية منطلقها و استقامة مبادئها،والسبب هو أن الشعر الثوري الصادق المنفعل لا يولد إلا نتيجة للإيمان العميق بالثورة ،فيخرج من لسان الشاعر،كالبركان من فوهة الجبل صاخبا و مجلجلا يهز القلوب و يحرك الضمائر ولعل هذا ما درسناه في بحثنا معتمدين على شاعر الثورة "مفدي زكريا" كنموذج ،و قد توصلنا إلى النتائج التالية:

1-لقد اكتسح الشعر الثوري ساحة الأدب الجزائري فقد كان حاضرا في جميع المواقف

و ساند الثورة الجزائرية و رفع صوتها عاليا، وخلدها في جميع بطولاتها و كان ذلك على حساب أنواع أخرى من الشعر التي كانت محتشمة و متواضعة أمام الشعر الثوري، فلا تكاد تجد شاعرا جزائريا واحدا، لم تكن الثورة إلهاما له ولم يشع ديوانه بقصائد ثورية حملت ندائه ، و حبه لوطنه .

2- رغم أن التاريخ الثوري كان سجلا يحفظ أحداث الثورة، و دساتير وبيانات تخطط لها

و تشرح أهدافها ، إلا أنه لم يقم مقام الشعر الذي اعتنقها وواكبها، فالتاريخ لا يتطلب شيئا أكثر من الإلمام بالأحداث بشيء من الموضوعية و النزاهة ، عكس الشعر الذي صنع أحداثها و غنى لحن انتصاراتها و كان صدى لأفراحها و أقراحها .

3-إن طغيان لغة القوة في الشعر الجزائري ما هي إلا لازمة من لوازم الشعر الــثوري

و تفجير للعاطفة، وتجسيدها عن طريق الصور و الألفاظ مما يحسبه البعض صخبا

و تكلفا.

4- مفدي زكريا واحد من الشعراء الجزائرين الذين أعطوا فلم يبخلوا رغم ما عاشوه من ظروف رديئة موغلة بالقساوة و خانقة إلى حد الموت دافع عن الثورة بكل ما أتيى من قوة ،عشقها إلى حد النخاع ، آمن بمشروعيتها و نجاحها إلى أبعد حد، تشبث بها كأي غريق لا حيلة له معها، فأستحق لقب شاعر الثورة.

5-لقد كان الشعر الثوري صورة حية عن التزامه و تلاحمه بالواقع الجزائري و رصد جميع أحداثه و بطولاته، فكانت الثورة هي الينبوع المتفجر في شعره فألهمته حرارة في أنفاسه و صدقا في كلماته، فكان شعره هو الثورة و الثورة هي شعره، وكما كانت الثورة مدينة للشعر ، فقد كان مفدي مدينا لها؛بما ألهمته من الروائع وما فتحت له من عالم الإبداع الذي لم يكن ليحلم به لولا الثورة.

6- رغم حب شاعرنا لوطنه و لهذه الثورة حتى أنه يبدو في بعض الأحيان متطرفا

و متعصبا،إلا أنه لم تفته القضايا العربية و المغربية لأن سلاحه في كل الأحوال هو إيمانه العميق بحتمية الانتصار، و تلاحمه النابض بالعفوية و الصدق.

ومسك الختام أن لغة القوة التي استعملها مفدي في شعره والتي تجسدت جليا في ديوانه "اللهب المقدس "كانت حزمة ضوئية من عالمه الشعري الخصب و المثير للرؤى

و التأملات و الذي يذل على موهبة فذة و قريحة وقادة استطاع بها الشاعر أن يكون في مصاف الشعراء المتألقين في عصره وأن يحيا في قلوب الجميع أصدقاء كانوا أم أعداء بفعل سحره و شخصيته الفريدة و وجهته المتميزة التي جعلته أشبه بالنبع المتدفق الذي يشق الأرض الجرداء ليجعلها جنة خضراء.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم

المصادر:

1) أبادي الفيروز:القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

2) أبو تمام:الديوان، ضبط وشرح شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 2003.

3) الزمخشري أحمد: أسس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ج2، ط1، 1997.

4) العيد محمد آل خليفة:ديوان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2010.

5) المتنبي:ديوان؛ دار بيروت للطباعة والنشر،(د. ط)، 1983.

6) زكريا أحمد بن فارس:الصاحبي في اللغة و مسائلها و سنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

7) مفدي زكريا:اللهب المقدس، ديوان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،(د. ط)، 2009.

8) نعمة أنطوان و آخرون:المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، دار المشرق ، بيروت، لبنان، ط2، 2001.

المراجع:

9) إسماعيل عز الدين:التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، مصر،ط4، دت.

10) أنيس إبراهيم:موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية،ط3، 1965.

11)إبن الأثير:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت ، أحمد الحوفي، بدوي طبابة، الرياض، دار الرفاعي، 1993.

12) أبو القاسم سعد الله:دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

13) أبو جمجة خليل:الحداثة الشعرية بين الإبداع و النظير و النقد، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1995.

14) الرفاعي أحمد شرفي:الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دت.

15) الركيبي عبد الله:دراسات في الشعر الجزائري، دار الكتاب العربي،ط1، 2009.

16) الركيبي عبد الله:قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

17) خرفي صالح:صفحات من الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1972.

18) خرفي صالح:الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

19) عبد الله بلقاسم:مفدي زكريا، شاعر الثورة حوارات و ذكريات، ط2، 2003.

20) فتح الباب حسين:مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، المكتبة المصرية اللبنانية، القاهرة، دط، 2010.

21)كبير سليمة:مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، المكتبة الخضراء للطباعة و النشر، الشراقة، الجزائر.

22) مبارك زكي:الموازنة بين الشعراء، منشورات المكتبة المصرية، بيروت،ط2، دت.

23) نازك الملائكة:قضايا الشعر المعاصر، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1981.

24) نهر هادي:اللغة العربية و تحديات العولمة، عالم الكتاب الحديث، الأربد، الأردن، ط2، 2010.

25) ناصر محمد:مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، وحدة الرغاية، الجزائر، ط2، 1989.

26) ناصر محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 1981.

27) يحي الشيخ صالح:شعر الثورة عند مفدي زكريا ،دار البحث ،قسنطينة، ط1، 1987.

28) يحياوي طاهر؛ توامي محمد:شعراء و ملامح؛ مطبعة اومزيان، الجزائر،ط2، 1984.

الرسائل والمذكرات

29) بوبقار السعيد:فلسطين في أدب الإبراهيمي، رسالة ماجستير، الإخوة منتوري، قسنطينة، كلية الأدب و اللغة؛ 2007 – 2008.

30) بومالي حنان:سجنيات مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، مذكرة لسانس، جامعة الأمير عبد القادر، كلية العلوم الإسلامية، قسنطينة، 2005 – 2006.

31) لقان إبراهيم:ملامح المقاومة ضد الإستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب و اللغات،2006- 2007.

المجلات و الدوريات:

32) الشهاب الأسبوعي:العدد 199؛ 27 أكتوبر 1927.

33) رحماني أحمد:لغة القوة عند مفدي زكريا،مجلة الضاد، العدد 8، أكتوبر 1983.

34) زغينة محمد:تأملات في سجنيات مفدي زكريا،مجلة الحية، العدد 6، 2002.

المواقع الإلكترونية:

35) www.sood.net.ovzbic مقال لابن جعفر الغامدي (الهوية والقيم ....موت اللغة)

36)www .net.aljazira.com:مقال لعبد العزيز بن محمد الفيصل(جزالة لبيد تعجب الفرزدق)

الفهرس: **الصفحة**

دعاء

كلمة شكر

إهداء

مقدمة (أ. ب.ت. ث)

مدخل 2

الفصـــــل الأول

المبحث 1: خصائص الشعر الجزائري.....12

الخصائص الموضوعاتية.....12

شعر قضية و شعر نضال ضد الاستعمار.....12

التشابه في المواضيع و الأغراض.....12

واقعية الشعر الجزائري.....14

الخصائص الفنية.....15

الضعف اللغوي.....15

استخدام اللغة البسيطة.....16

التعبير المباشر، والنبرة الخطابية.....17

الجمود و عدم التعاطف النفسي.....18

المبحث 2: قضايا في الشعر الجزائري.....22

قضية فلسطين.....22

الوحدة العربية.....24

الوحدة المغربية.....25

الاستقلال و الحرية.....28

المبحث 3: أغراض الشعر الجزائري.....30

الغزل.....31

الرثاء.....34

الفخر.....36

الهجاء.....37

الفصل الثاني: لغة القوة في شعر مفدي زكريا

المبحث1: التعريف بمفدي زكريا.....42

حياته.....42

شخصيته.....43

العوامل المؤثرة في نجاحه كشاعر.....44

أهم أعمال الشاعر.....45

شهادات و ذكريات في حق الشاعر.....47

المبحث 2: مفهوم لغة القوة.....49

مفهوم القوة.....49

مفهوم قوة اللغة.....50

مفهوم لغة القوة.....52

المبحث 3: لغة القوة في شعر مفدي زكريا.....50

الفصل الثالث: الخصائص الفنية في شعر مفدي زكريا

اللغة الشعرية.....64

الموسيقى الشعرية.....71

الصورة الشعرية.....78

خاتمة.....91

قائمة المصادر و المراجع

الفهرس